تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة النمل وسورة القصص

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

28 محرم 1448 الموافق 13 يوليو 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . ..**الصفحة**

سور النمل. 4

سورة لقصص..... 47

المراجع 110

سورة النمل

تسمية السورة

(**سورة النمل**) وهو الاسم التوقيفي والأشهر في المصاحف وكتب التفسير والحديث، كما أطلق عليها أسماء أخرى اجتهادية مثل: **سورة سليمان، و سورة الهدهد، سورة طس**، فقد تميزت عن أختيها فهي طس، دون الميم.

وهي **مكية**، أو نزل أغلبها في مكة المكرمة. كما وجد الخلاف في عد آياتها؛ فهي بالعد الكوفي 93، وبالعد البصري والشامي 94، وبالعد المدني والمكي 95.

لم يرد سبب نزول السورة، كما هو الحال لمعظم سور القرآن، أما موضوعها فهو -في الغالب- موضوع السورتين: سورة الشعراء قبلها، وسورة القصص بعدها، فقد جاءت بينهما في الترتيب في المصحف، وكذلك كان ترتيبها في النزول، فصارت كالتتمة لسورة الشعراء في بيان بقية قصص الأنبياء، وهي قصة داود وسليمان -عليهما السلام-، وفيها تفصيل لما أجمل من قصة موسى، وقصة صالح، وقصة لوط....

كما يوجد تشابه بين هذه السور في البداية والافتتاح بالحروف المقطعة (طسم الشعراء، وطس النمل ، وطسم القصص.

وكذلك التشابه الموضوعي بينها في وصف القرآن وتنزيله من عند الله تعالى، إلى غير ذلك من وجوه التشابه.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(14))

هذه الافتتاحية المباركة من سورة النمل هي مأدبة بيانية، ولحمة سياقية تتداخل فيها عظمة الوحي بجلال القصص القرآني.

*(طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ)، تبدأ السورة بالحروف المقطعة المحاطة بظلال الإعجاز والتحدي. يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ هذه الحروف هي بمثابة التنبيه والتشييد بعظمة ما سيأتي بعدها، وربطها الفوري بـ "تلك" الإشارية للبعيد، يدل على علو رتبة هذا الكتاب ومكانته في السماء قبل الأرض.

اسم الإشارة (تِلْكَ): استُعمل للبعيد إشارةً إلى رفعة القدر، ولم يقل "هذه"، تنزيهًا لآياته عن الرتب الدانية.

التنكير في قوله تعالى: (وَكِتَابٍ مُبِينٍ): جاء هنا للتعظيم والتهويل الإيجابي، أي: وكتاب ما أعظمه وأعلاه من كتاب! جامع للوضوح والبيان.

العطف بين الْقُرْآنِ وكِتَابٍ: يرى ابن عاشور -رحمه الله - في (التحرير والتنوير) أنّه عطف صفات للموصوف الواحد باعتبارين؛ فهو "قرآن" لأنه يُقرأ ويُتلى، وهو "كتاب" لأنه يُكتب ويُدوّن، وفي هذا إشارة إلى تلازم الحفظ الصدري والخطّي.

إشراقة بلاغة بيانية: الاشتقاق والوظيفة: (مُبِينٍ) اسم فاعل من "أبان"، وهو يحمل وجهين بلاغيين: لازم: بمعنى بيّن واضح في نفسه، ومتعدٍّ: بمعنى مُبين للحق من الباطل، والجمع بينهما من أسرار الإعجاز.

*(هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ): بعد تعظيم الكتاب بذاته، جاء بيان وظيفته وأثره في الخلق. السورة هنا تضيق الدائرة مباشرة؛ فالكتاب عام، لكن الانتفاع به خاص.

صيغة المصدر (هُدًى وبُشْرَىٰ): بدل "هادياً ومبشراً"، جاء بالمصدر مبالغةً، إنّ القرآن في ذاته إلى محض هداية ومحض بشارة، ممتلئاً بهما.

كما أنّ التقديم والتأخير المعنوي، حيث تقدمت الهداية على البشارة؛ لأن الهداية وسيلة وعمل (الدنيا)، والبشارة ثمرة وغاية (الآخرة)، والمسبب لا يأتي إلاّ بعد السبب.

إشراقة بلاغية بيانية: يرى سيد قطب – رحمه الله – (في ظلال القرآن) أنّ هذا التخصيص للمؤمنين يعكس "شرط الانتفاع"؛ فالقرآن لا يفتح مغاليقه ولا يعطي أسراره إلاّ لقلبٍ يؤمن به أوّلاً، فالإيمان هو الحاسة التي تلتقط إشارات التوجيه الرباني.

*(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ): هذه الآية هي "المحدّد الأسلوبي" لهوية المؤمنين المذكورين آنفاً. رسم القرآن صفاتهم بالجمع

بين حق الله (الصلاة)، وحق العباد (الزكاة)، والوازع النفسي المحرك لهما (اليقين بالآخرة).

التعبير بالمضارع (يُقِيمُونَ) / (يُؤْتُونَ): يدل على التجدد والاستمرار، فليست الصلاة عندهم نزوة عابرة، بل ديدن مستمر.

كما أنّ في الجملة الاسمية في ختام الآية (وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ): عدل فيها عن الفِعلية إلى الاسمية لإفادة الثبوت والدوام.

توكيد الضمير (هُمْ): تكرار الضمير المنفصل (وَهُم... هُمْ) أسلوب قصر وحصر، يفيد الاهتمام البالغ؛ فهم وحدهم دون غيرهم الأحق بصفة اليقين.

إشراقة بلاغية وبيانية: يشير ابن القيم – رحمه الله - إلى ارتباط الصلاة والزكاة باليقين؛ فبذل المال (الزكاة) ومكابدة البدن (الصلاة) لا يسهلان على النفس إلاّ إذا ترسخ يقين الآخرة في القلب، فالجزاء الأخروي هو المحرّك للجهد الدنيوي.

موقع مفعول اليقين: تقدم الجار والمجرور (بِالْآخِرَةِ) على الفعل (يُوقِنُونَ) للاهتمام والرد على منكري البعث الذين سيأتي ذكرهم مباشرة.

*(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ): هذا هو المشهد المقابل (المقابلة البلاغية)؛ فبعد ذكر الموقنين بالآخرة، يلتفت السياق إلى الضد الجاحد، ليبرز التباين الصارخ بين المآلين.

الإسناد في (زَيَّنَّا): أسند التزيين إلى ذاته العلية سبحانه (تزيين قدر وجزاء)، عقوبةً لهم على خيارهم البدئي بالحبور الدنيوي، وهو ما يسمى في علم الأسلوب بـ "المشاكلة والجزاء التقديري".

تأمل هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم (والشر ليس إليك) في الحديث الذي يرويه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أنَّه كان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ قال: وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا مِنَ المُشرِكينَ، إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبِذلك أُمِرتُ وأنا مِنَ المُسلِمينَ، اللَّهُمَّ أنتَ المَلِكُ لا إلَهَ إلَّا أنتَ، أنتَ رَبِّي وأنا عَبدُكَ، ظَلَمتُ نَفسي، واعتَرَفتُ بذَنبي، فاغفِرْ لي ذُنوبي جَميعًا، إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، واهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ، لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنتَ، واصرِفْ عَنِّي سَيِّئَها، لا يَصرِفُ عَنِّي سَيِّئَها إلَّا أنتَ، لَبَّيكَ وسَعدَيكَ، والخَيرُ كُلُّه في يَدَيكَ، والشَّرُّ ليس إليكَ، أنا بكَ وإليكَ، تَبارَكتَ وتَعالَيتَ، أستَغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ[1].

1 - أخرجه مسلم (771)، وأبو داود (760)، والترمذي (3421)، والبزار (536) واللفظ لهم.

الفاء في (فَهُمْ): تفيد السببية والترتيب؛ فالتزيين أثمر العمَه المباشر، كما أنّ الفعل (يَعْمَهُونَ): العمَه هو عمى البصيرة والحيرة في الرأي، وجاء بصيغة المضارع ليدل على تقلبهم المستمر في التيه والتردد.

إشراقة بلاغية وبيانية: مفهوم التزيين عند البغوي وابن تيمية – رحمهما الله -: أي أن الله خذلهم فاستحسَنوا قبائح أعمالهم جزاءً لكفرهم. ويؤصل شيخ الإسلام ابن تيمية هنا لقاعدة القدر: "الجزاء من جنس العمل"، فيما معناه: لمّا أعرضوا عن اليقين، سُلبت منهم بوصلة التمييز، فأصبح القبيح عندهم حسناً.

*(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ): هذه هي النتيجة الحتمية للمقدمة السابقة؛ مَن عَمِهَ في الدنيا، انتهى إلى سوء العذاب والخسران المطلق في الأخرى.

اسم الإشارة (أُولَٰئِكَ): استُعمل هنا للبعيد، لكنه بُعدُ تحقير ودونية وسقوط منزلة، بعكس "تلك" في الآية الأولى.

تعريف الطرفين والقصر بالضمير (هُمُ الْأَخْسَرُونَ): كرر الضمير هُمْ لتوكيد حصر الخسران الكامل فيهم؛ فالكل قد يخسر، لكن هم بلغوا ذروة الخسران (اسم التفضيل: الأخسرون).

إشراقة بلاغية بيانية: إضافة (سُوءُ الْعَذَابِ): أي هو العذاب المتناهي في السوء والشدة والإهانة.

يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ خسرانهم نابع من ضياع رأس المال (العمر والبصيرة)، فباعوا الباقي بالفاني، ورأوا خسارتهم ربحاً في الدنيا بسبب "التزيين"، فصُدموا بالحقيقة في الآخرة.

*(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) هذه الآية هي "الجسر البلاغي" العظيم؛ التفاتة ربانية لتثبيت النبي ﷺ قبل الدخول في سرد القصص. أي: ما يقصه سبحانه على نبيّه صلى الله عليه وسلم ليس رصفاً للتاريخ، بل هو وحيٌ يُلقى إليك من مصدري الحكمة والعلم.

التوكيد بـ إنَّ واللام المزحلقة لَتُلَقَّى: لدفع الشك والرد على من قالوا "أساطير الأولين".

بناء الفعل للمجهول (المبني لما لم يُسمَّ فاعله) تُلَقَّى: تعظيماً للفاعل (الله) وتفخيماً للفعل، ولإبراز حالة التلقي السلبي الإيجابي للنبي ﷺ (أي أنه مستقبِل محض لا دخل لجهده البشري في صياغته).

استعمال لفظة (لَّدُنْ) دون "عِند": تفيد القرب اللدني الخاص والابتداء المحض، إشارة إلى أن هذا الوحي نزل غضاً طرياً من لدن الذات الإلهية.

إشراقة بلاغية بيانية: الفاصلة بـ (حَكِيمٍ عَلِيمٍ): ترتيب الصفات هنا معجز؛ قدم حَكِيمٍ (الذي يضع الأمور في مواضعها ويحكم النظم) ثم عَلِيمٍ (المحيط بكل شيء). فالقرآن محكم الصياغة لأنه صدر عن حكمة، ومحيط بالقصص والغيب لأنه صدر عن علم. يربط ابن عاشور – رحمه الله - بين هذا التذييل والقصص القادمة؛ فقصة موسى وسليمان وصالح ولوط تحتاج إلى علم بالخفايا وحكمة في سَوق العِبر.

*(إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

بدأ القصص بـ (إِذْ)، الظرفية لما مضى من الزمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر. القصة تبدأ في ليلة مظلمة باردة، تائهة، لتتشابه الحالة الحسية لموسى مع الحالة المعنوية للبشرية قبل الوحي (ظلام وبرد وتيه).

الفعل (آنَسْتُ): أبلغ من "رأيت"؛ فالإيناس رؤية يصاحبها طمأنينة وأنس بعد وحشة وانعزال.

كما أنّ السين في (سَآتِيكُم): تفيد الوعد القريب المؤكد لبث الطمأنينة في قلب أهله.

التنويع بـ (أَوْ): (بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ) يدل على دقة موسى؛ فهو إن لم يجد بشراً يهدونه الطريق (الخبر)، فسيأتي بجزء من النار للتدفئة (الشهاب).

التنكير في (نَارًا)، بِخَبَرٍ، بِشِهَابٍ: للتفخيم والتقليل الحسي المقترن بالحاجة الحالية.

إشراقة بلاغية بيانية: يبرز هنا فقه الدعوة؛ الداعية يتحرك من وسط المعاناة البشرية. موسى يبحث عن الدفء لأهله (مطلب مادي) فيسوقه الله إلى النبوة (مطلب روحي).

معنى (تَصْطَلُونَ): الاصطلاء هو الاستدفاء بالنار، واختيار هذا اللفظ يجسد شدة البرد التي كانوا فيها.

*(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

المفاجأة الكبرى؛ تبدل المشهد من البحث عن وسيلة تدفئة بشرية إلى تجلي الخطاب الإلهي العظيم، ونداء ربه العظيم.

صيغة المبني لما لم يسم فاعله (نُودِيَ): تهويلاً للحدث ولفتًا للانتباه إلى عظمة "النداء" و"المنادي" المستغني عن التعيين لشدة ظهوره.

صيغة البركة (بُورِكَ): تدل على ثبوت الخير من الله ونمائه في هذا المكان البقعة المباركة.

الجملة الاعتراضية/التنـزيهية (وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ): تنزيهٌ لله عز وجل مشابهة شيء من خلقه، فهي كقوله سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) قَالَ. كَانَ ذَلِكَ النَّارَ قَالَ اللَّهُ مَنْ فِي النُّورِ وَنُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النُّورِ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ؛ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ؛ ثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ؛ عَنْ أَبِيهِ عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ أَنَّ عِكْرِمَةَ حَدَّثَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (نْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) قَالَ: كَانَ ذَلِكَ النَّارُ نُورَهُ (وَمَنْ حَوْلَهَا) أَيْ بُورِكَ مَنْ فِي النُّورِ وَمَنْ حَوْلَ النُّورِ. وَكَذَلِكَ رُوِيَ بِإِسْنَادِهِ مِنْ تَفْسِيرِ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) يَعْنِي نَفْسَهُ قَالَ: كَانَ نُورُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي الشَّجَرَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا. حَدَّثَنَا أَبِي؛ ثَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ سَعِيدٍ الْجَوْهَرِيُّ؛ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ؛ عَنْ شيبان؛ عَنْ عِكْرِمَةَ: (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) قَالَ: كَانَ اللَّهُ فِي نُورِهِ. حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثَنَا ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ثَنَا عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ الْمَدَائِنِيُّ عَنْ وَرْقَاءَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ؛ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) قَالَ: نَادَاهُ وَهُوَ فِي النُّورِ[1].

*(يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ): بعد التمهيد بالبركة والتنزيه، جاء التعريف الصريح المباشر بالله جل وتعالى لإزالة أي حيرة أو خوف في نفس موسى عليه السلام.

ضمير الشأن (إِنَّهُ): يُؤتى به لتفخيم الأمر وتعظيمه قبل ذكره صراحة، والتقدير: إن الشأن العظيم والأمر الجسيم هو: أنا الله.

ضمير الفُصل (أَنَا): يفيد القصر وتثبيت المعرفة، لئلا يقع في خلد موسى أدنى وهم.

الاقتران بـ (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ): اختيار هذين الاسمين تحديداً يتناسب مع الموقف؛ "العزيز" القاهر القوي الذي سيحميك من فرعون، و"الحكيم" الذي اختارك في هذا الوقت وهذا المكان لتلقي الرسالة.

---

1 - ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج5/ص 461).

*(وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)

انتقال من الوحي القولي إلى الوحي العملي الإعجازي؛ اختبار تربوي سريع لقلب موسى لإعداده لمواجهة الطاغية الأكبر.

التشبيه بـ (كَأَنَّهَا جَانٌّ): الجان هي الحية الخفيفة السريعة الحركة. وفي آيات أخرى قيل " ثعبان مبين". الجمع الأسلوبي بينهما بياني معجز: جرمها جرم ثعبان عظيم، وحركتها وخفتها كحركة الجان السريع.

الإطناب والتوكيد في الحركة: (وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ): ثلاثة أفعال/أحوال متتابعة تُصور الهرب التام برعب بشري طبيعي؛ ولى، ثم أدبر، ولم يلتفت خلفه (لم يعقب).

النفي المطلق والقصر المعنوي (يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ): تشريف ومنقبة للمرسلين؛ حضرة القرب الإلهي هي مأمن الخائفين، فلا يجتمع الخوف والأمن في جوار الرب العلي.

إشراقة بلاغية بيانية: يشير ابن القيم – رحمه الله - إلى أنّ الخوف الطبيعي (الجبلي) لا يقدح في المقامات العلية والولاية؛ فموسى - عليه السلام - ولّى هارباً بطبيعته البشرية، لكن التربية الربانية جاءت لتنقله من طور الطبيعة إلى طور النبوة والاستناد المباشر إلى قوة الحق، فثبت بعد ذلك أمام سحرة فرعون وجيشه.

*(إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ): هذا الاستثناء أثار معركة بلاغية ولسانية بين المفسرين والنحاة؛ هل هو متصل أم منقطع؟

قال البغوي رحمه الله: وَاخْتُلِفَ فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ، قِيلَ: هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُوسَى حِينَ قَتَلَ الْقِبْطِيَّ خَافَ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ تَابَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى: إِنَّمَا أَخَفْتُكَ لِقَتْلِكَ النَّفْسَ. وَقَالَ: مَعْنَى الْآيَةِ لَا يُخِيفُ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ إِلَّا بِذَنْبٍ يُصِيبُهُ أَحَدُهُمْ، فَإِنْ أَصَابَهُ أَخَافَهُ حَتَّى يَتُوبَ، فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَكُونُ الِاسْتِثْنَاءُ صَحِيحًا وَتَنَاهَى الْخَبَرُ عَنِ الرُّسُلِ عِنْدَ قوله: (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ) ثُمَّ ابْتَدَأَ الْخَبَرُ عَنْ حَالِ مَنْ ظَلَمَ مِنَ النَّاسِ كَافَّةً، وَفِي الْآيَةِ مَتْرُوكٌ اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِهِ بِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: فَمَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ. قال بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ هَذَا بِاسْتِثْنَاءٍ مِنَ الْمُرْسَلِينَ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الظُّلْمُ، بَلْ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمَتْرُوكِ فِي الْكَلَامِ، مَعْنَاهُ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ، إِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الظَّالِمِينَ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ تَابَ، وَهَذَا مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ، مَعْنَاهُ: لَكِنْ مَنْ ظَلَمَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فَإِنَّهُ يَخَافُ، فَإِنْ تَابَ وَبَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَعْنِي يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ وَيُزِيلُ الْخَوْفَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ: (إِلَّا هَاهُنَا بِمَعْنَى وَلَا، يَعْنِي: لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ وَلَا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ يَقُولُ: لَا يَخَافُ

لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ وَلَا الْمُذْنِبُونَ التَّائِبُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى. (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) [الْبَقَرَةِ: 150] يعني ولا الذين ظلموا [1].

الترتيب الأسلوبي (بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ): التوبة تبديلٌ حقيقي في الكينونة البشرية؛ حيث يُمحى أثر السوء ويحل الحسن مكانه، وذلك مثل قوله تعالى: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) [الفرقان:70].

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إِنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجَنَّةِ دُخولًا الجَنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا مِنها: رَجُلٌ يُؤتى به يَومَ القيامةِ، فيُقالُ: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِه، فيُقالُ: عَمِلتَ يَومَ كَذا وكَذا كَذا وكَذا، وعَمِلتَ يَومَ كَذا وكَذا كَذا وكَذا، فيَقولُ: نَعَم، لا يَستَطيعُ أن يُنكِرَ وهو مُشفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِه أن تُعرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لك مَكانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فيَقولُ: رَبِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا! فلقد رَأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ضَحِك حتَّى بَدَت نَواجِذُه [2].

إشراقة بلاغية وبيانية: التذييل بـ (فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ): جملة تعليلية مؤكدة باسمية وتناسب تام بين الجريمة (الظلم والسوء) والصفة الإلهية (المغفرة والرحمة)، لفتح باب الأمل المشرع دائماً.

*(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

المعجزة الثانية التمكينية (آية اليد) المتممة لمعجزة العصا، لتكتمل العدة الروحية والحسية للذهاب إلى مركز الطغيان.

جواب الأمر تَخْرُجْ: جاء مجزوماً في جواب الأمر (وَأَدْخِلْ) للدلالة على الفورية والارتباط السببي المطلق والخرق المباشر للعادة.

الاحتراس البلاغي (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ): هذا من أروع أساليب "الاحتراس" في البلاغة؛ فخروج اليد بيضاء قد يتوهم منه الرائي أنه مرض "البرص"، فجاء القيد القرآني الفوري ليدفع هذا الوهم؛ هو بياض نوراني شعاعي لا علة فيه ولا مرض.

حذف حرف الجر أو التقدير بـ (فِي تِسْعِ آيَاتٍ): أي اذهب بهذه الآيات كائنة أو مندرجة في جملة تسع آيات.

---

1 - انظر: مختصر تفسير البغوي (ج5/ص692)، وتهذيب تفسير البغوي(ص877).
2 - أخرجه مسلم (190) من أفراد مسلم على البخاري.

إشراقة بلاغية وبيانية: يركز سيد قطب – رحمه الله - هنا على إعداد موسى؛ إدخال اليد في الجيب (فتحة الثوب عند الصدر) يرمز للسريرة والقلب، وخروجها بيضاء تلمع كأنما تخرج من نبع الطهر والنور الإلهي الداخلي الذي غسل فؤاد موسى قبل كفه.

*(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ): انتقال خاطف عبر الزمن؛ طُويت مسافة الذهاب والوصول والمواجهة، وانتقل النظم مباشرة إلى اللحظة التي عُرضت فيها الآيات على فرعون وملئه، لإبراز ردة فعلهم الفورية المعاندة.

أسند الإبصار إلى الآيات (اسم فاعل)، والآيات هنا تُبصَر وتُبصِر؛ أي أنها من شدة وضوحها وجلائها أصبحت كائنات حية، فالحية تبصر، وكذا الجراد والقمل والضفادع والدم التي ذكر في سورة الأعراف آيات مبصرة، كما أنّها يُبصر بها الحق وتُهدي إليها العيون والقلوب، أي أنها تجعل غيرها مبصراً للهداية (مُفْعِلة من أبصر غيره).

اسم الإشارة والتحقير الحسي ه(هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ): أشاروا بـ "هذا" للقريب تحقيراً لشأن الآيات، ووصفوها بالسحر المبين (الواضح البيّن) كنوع من الدعاية السياسية والقلب للحقائق.

*(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ).

هذه الآية هي ذروة النقد النفسي واللساني والتحليل البلاغي في السورة؛ تكشف الشروخ الداخلية في أنفس الطغاة.

المقابلة بين (جَحَدُوا) و(اسْتَيْقَنَتْهَا): الجحود عمل اللسان والظاهر، والاستيقان عمل القلب والباطن. هذا التضاد يمثل حالة "الفصام النكدي" التي يعيشها الكافر.

صيغة الاستفعال (اسْتَيْقَنَتْهَا): السين والتاء هنا للمبالغة والطلب، أي وصلوا إلى قمة اليقين الداخلي الذي لا يخالطه شك، ومع ذلك جحدوا.

المفعول لأجله أو الحال (ظُلْمًا وَعُلُوًّا): بينت العلة الدافعة للجحود؛ ليس نقص الدليل، بل الظلم (تجاوز الحق) والعلو (الاستكبار السياسي والاجتماعي عن اتباع رجل من بني إسرائيل).

تأصيل ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - في الكفر وعمل القلب: يستدل شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - بهذه الآية على أن "مجرد المعرفة واليقين بالقلب لا يكفي للإيمان"، ففرعون كان موقناً بقلبه أنّ موسى صادق (كما قال له موسى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي

لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) [الإسراء:102]، ومع ذلك هو أكفر الكافرين؛ لأن الإيمان يستلزم الانقياد والقبول وليس مجرد التصديق البارد.

الأمر بالنظر التدبري حيث ختم الآية بقوله سبحانه: (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ): فهو خطاب للنبي ﷺ ولكل قارئ؛ فجملة الاستفهام معلّقة بـ "انظر"، لتهويل النهاية التي حلت بهم (الغرق في البخر والهلاك والخزي، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده)، ووصفهم بـ الْمُفْسِدِينَ ليطابق الوصف عقوبة الإفساد في الأرض بالعلُوّ.

*(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(22) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (26) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(35))

الشوط الثاني من هذا الإعجاز البياني في سورة النمل؛ حيث يتحول السياق من مشهد الإعداد والتربية النبوية في الظلام والبرد مع موسى عليه السلام، إلى مشهد التمكين المطلق، والملك المسخر، والعلم اللدني الشامل مع داوود وسليمان عليهما السلام.

*(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ).

يربط البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) هذا الافتتاح بالآية السادسة في المقطع السابق (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ). فلما قرر أن الوحي صادر عن علم وحكمة، شرع يقص أحوال من آتاهم العلم والحكمة في أبهى صور الملك؛ تثبيتاً للنبي ﷺ، وإظهاراً لكيفية شكر النعمة بضد مسلك فرعون الذي عتا واستكبر.

التوكيد بـ وَلَقَدْ: اللام موطئة للقسم، وقَدْ للتحقيق، لتأكيد أن ما يمتلكه هذان الملكان هو وهبٌ إلهي محض (آتَيْنَا) وليس سعياً بشرياً معزولاً.

التنكير في عِلْمًا: تفيد التعظيم والتفخيم؛ أي علماً لدنياً عظيماً، محيطاً بخصائص الملك، والقضاء، وسياسة الخلق، وفهم الطبائع.

التقديم البلاغي للحمد: جعل قولهم الْحَمْدُ لِلَّهِ متصلاً بالفور بعد إيتاء العلم؛ دلالة على أن صفة العالم الرباني هي المسارعة بالاعتراف بالمنعم تخلصاً من زهو النفس.

يلحظ ابن عاشور – رحمه الله - أدب الأنبياء البالغ في قولهما: (عَلَىٰ كَثِيرٍ) ولم يقولا "على عباده"، فلم يدّعيا التفضيل المطلق على كل الخلق، بل اعترفا بوجود من هو أفضل أو مساوٍ، تنـزهاً عن الفخر، ويشير ابن القيم – رحمه الله - إلى أن العلم هو أعظم النعم التي يُحمد الله عليها، إذ قدمه السياق هنا على ذكر الملك والجنود والتمكين؛ فالعلم هو القائد والموجّه للمُلك، وبدونه يتحول الملك إلى طغيان فرعوني.

*(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ).

تنتقل القيادة السردية إلى سليمان عليه السلام لإبراز خصوصية ملكه وتفرد معجزاته التي لم تتكرر لبشر قبله ولا بعده.

بناء الفعل لما لم يسم فاعله (عُلِّمْنَا): تعظيماً للمعلّم وهو الله، وتواضعاً من سليمان بأن هذا ليس ذكاءً منه بل تعليم وتفهيم.

عموم الصيغة (مِن كُلِّ شَيْءٍ): (من) هنا للتبعيض أو لبيان الجنس؛ والتعميم نسبي ومجازي بليغ، أي أوتينا من كل شيء يحتاجه الملوك وأصحاب التمكين والسيادة، لتقوم به الحجة وتتحقق به النعمة.

ضمير الفصل وأدوات التوكيد إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ: تكثيف أدوات التوكيد (إِنَّ، اللام المزحلقة، ضمير الفصل هُوَ) لقطع دابر الشك وإعلان نِعم الله على رؤوس الأشهاد، وليس هذا من قبيل الفخر المذموم بل هو من التحدث بنعمة الله.

إشراقة بلاغية بيانية تفسيرية: الوراثة عند السلف: يؤكد البغوي وشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - أنّ الوراثة هنا هي وراثة العلم والنبوة والمُلك، وليست وراثة المال؛ لأن الأنبياء لا يُورثون مالاً صيانة لمقام النبوة عن تهمة السعي للدنيا.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا، سلك اللهُ به طريقًا من طرقِ الجنةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلمِ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له من في السماواتِ ومن في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ، وإنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ[1].

يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ إعلان سليمان (عُلمنا مَنطِقَ الطَّيْرِ) يفتح أفق الإعجاز اللساني؛ فالطير له لغة حقيقية، أطلع الله عليها هذا النبي الخارق للعادة ليتحكم بأجواء فضائه كما يتحكم بأرضه.

*(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ): رسم مشهد أسلوبي عسكري مهيب ومذهل؛ الحشد ليس بشرياً فحسب، بل هو خليط عجيب من عوالم مرئية وغير مرئية.

الفعل (حُشِرَ): يدل على الجمع الكلي والإنفاذ الحتمي بالترهيب أو الهيبة العالية.

التفصيل بعد الإجمال: أجمل الجنود ثم فصلهم (مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ) لبيان تنوع عناصر القوة واتساع رقعة السيطرة والسلطان.

الخاتمة بـ (فَهُمْ يُوزَعُونَ): أسلوبياً، الفعل "يوزع" يعني يمنع أولهم ليلحق بهم آخرهم، أي يُكفون ويُساقون بنظام دقيق صارم لمنع الفوضى. وهذا يوضح عبقرية التنظيم العسكري والإداري في دولة سليمان.

قال قتادة: كان على كل صف من جنوده وزعة ترد أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، والوازع الحابس [2].

*(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

ينتقل بنا المشهد القرآني من قمة العظمة العسكرية وجلال الموكب الملكي، لنتأمل أضعف المخلوقات وأصغرها تحت السنابك؛ النمل. وهنا تظهر مفارقة سياقية عجيبة.

---

1 - أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له، والترمذي (2682)، وابن ماجه (223)، وأحمد (21715) وصحح الألباني إسناده.

2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن): (ص879).

تنكير (نَمْلَةٌ): إشارة إلى أنها فرد لا يتميز عن بقية النمل، لكنها أوتيت من الفصاحة والوعي ما أنقذ أمتها.

عشرة أنواع من البلاغة في جملة واحدة: يُفصّل ابن القيم – رحمه الله - في روعة نداء هذه النملة، حيث جمعت في كلماتها القليلة عشرة أساليب بلاغية:

النداء: (يَا)، والتنبيه: (أَيُّهَا)، وتسمية المنادى: (النَّمْلُ)، والأمر: (ادْخُلُوا)، و تخصيص النص: (مَسَاكِنَكُمْ)، والنهي المؤكد: (لَا يَحْطِمَنَّكُمْ) - بنون التوكيد الثقيلة - ، وتحديد الفاعل: (سُلَيْمَانُ)، والعطف بالتعميم: (وَجُنُودُهُ)، والاعتذار والاحتراس البلاغي الفائق: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

عُومل النّمل أسلوبياً معاملة العقلاء باستخدام واو الجماعة (ادْخُلُوا) لما ظهر منها من عقل وحكمة وتنظيم، وهي في الواقع أعطيت نوع أو قدر من العقل والحكمة، مثل ما أوتي الغراب حين دفن أخاه، ممكن أن يتعلم منها الإنسان.

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) [المائدو:31].

الفعل (يَحْطِمَنَّكُمْ): لفظ دقيق لسانياً؛ لأن غلاف النمل الخارجي يتكون من مادة كيتينية زجاجية قابلة للتحطم والتهشم، ولم يقل يقتلنكم أو يطأنكم، وهذا إعجاز علمي ولفظي.

إشراقة بلاغية بيانية تفسيرية: الاحتراس والعدل: قولهما (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) شهادة عدل من نملة لجيش سليمان؛ فهي تدرك صلاح هذا النبي وأنه وجيشه لا يقصدون الأذى والظلم، بل إن حدث حطمٌ فهو ناتج عن عدم شعور بحجم هذا المخلوق الصغير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ نملةً قرصتْ نبيًّا من الأنبياءِ فأمر بقريةِ النملِ فأُحرقتْ فأوحى اللهُ إليهِ: في أنْ قرصَتك نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبِّحُ [1].

وفي محكم التنزيل: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [الإسراء:44].

1 - أخرجه مسلم (2241)، وأبو داود (5266)، والنسائي (4358)، وابن حبان (3101) واللفظ لهم.

لكن هنا يطلعنا الله على خاصية فطرية في النمل، أنه يتحدث ويفكر ويخاطب بعضه بعضا، ويعمل بفطرته بنظام علمه الله إياه، وهو بعض ما يكتشف في عالمنا المعاصر. ولله أعلم.

*(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

الاستجابة الفورية من الملك النبي لصوت النملة؛ مشهد يفيض بالرحمة والتواضع واللجوء الفوري للحق سبحانه.

التدرج الحركي النفسي فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا: الفاء عاطفة تفيد التعقيب الفوري. والجمع بين التبسم والضحك هو إظهار لبداية الانفراجة في الوجه (التبسم) التي أدت إلى بهجة واضحة (الضحك) تعجباً ولطفاً، دون قهقهة تسقط الهيبة الملكية.

وعن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي رضي الله عنه قال: ما كان ضَحِكُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا تَبسُّمًا [1]..

وعن عائشة رضي الله عنها: ما رَأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُستَجمِعًا قَطُّ ضاحِكًا، حتَّى أرى منه لَهَواتِه، إنَّما كان يَتَبَسَّمُ[2].

الفعل (أَوْزِعْنِي): كلمة غنية لسانياً؛ تعني ألهمني، واجمع جوارحي، وكفّني عن كل شيء إلاّ عن شكرك، واجعل الشكر ديدني الذي يوزعني (أي يمنعني ويحجزني عن الكفران).

العطف بـ (وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ): اعتراف بالوراثة الصالحة ونعمة الأبوة المتمثلة في داوود عليه السلام.

إشراق بلاغية بيانية تفسيرية: فقه الشكر والعمل: يوضح ابن القيم - رحمه الله - روعة قوله تَرْضَاهُ؛ فليس كل عمل صالح يرضاه الله بالقدر الأعلى، بل هناك أعمال صالحة خالصة بالكامل يرضاها بفضله، وسليمان يطلب الصفوة. ويرى محمد قطب – رحمه الله - في هذا المشهد التربوي تحطيماً لغرور القوة؛ ملكٌ تخر له العباقرة والجن، يتوقف متأثراً حامداً مستغفراً بسبب كلمة نملة.

---

1 - أخرجه الترمذي (3642)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)(189) ، وقال شعيب الأرناؤوط عن سنده: صحيح.

2 - أخرجه البخاري (6092)، ومسلم (899)، وأبو داود (5098)، والحاكم (3700) بإختلاف يسير في أثناء حديث.

*(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ): ينتقل بنا المشهد العسكري الدقيق إلى ساحة الرقابة والإدارة؛ القائد الأعلى يستعرض أسلحة جيشه وفصائله.

الفعل (تَفَقَّدَ): يدل على شدة المتابعة والحضور الإداري الصارم؛ فلم يكن غائباً عن تفاصيل جيشه رغم ضخامته.

صيغة السؤال (مَا لِيَ لَا أَرَى): أسلوبياً، بدأ سليمان باللوم على نفسه وبصره أولاً تلطفاً وتثبتاً (هل هناك مانع منعني من رؤيته وهو حاضر؟)، ثم انتقل بالاضراب (أَمْ) إلى الحقيقة الباقية: (أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)، أي: غاب بغير إذن.

إشراقة بلاغية بيانية تفسيرية: سر اختيار الهدهد عند البغوي وابن عاشور: قال البغوي – رحمه الله - وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْهُدْهُدَ كَانَ دَلِيلَ سُلَيْمَانَ عَلَى الْمَاءِ وَكَانَ يَعْرِفُ مَوْضِعَ الْمَاءِ وَيَرَى الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ، كَمَا يُرَى فِي الزُّجَاجَةِ، وَيَعْرِفُ قُرْبَهُ وَبُعْدَهُ فَيَنْقُرُ الْأَرْضَ [1]. ويوضح ابن عاشور أن غياب عنصر فني أساسي في الجيش يخل بالمسيرة، لذا ظهر الغضب السليماني فوراً.

*(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ): تأكيد للحسم العسكري، ووضع القوانين الصارمة للضبط والربط؛ فلا مكان للمهملين في دولة التمكين الإلهي.

لام القسم ونون التوكيد الثقيلة: تكررت في الأفعال الثلاثة (لَأُعَذِّبَنَّهُ، لَأَذْبَحَنَّهُ، لَيَأْتِيَنِّي) لتأكيد العزم والجدية التامة.

التنويع بـ (أَوْ): لبيان مرونة العقاب والعدالة؛ فالعقوبة متدرجة من التعذيب (نتف الريش مثلاً) إلى الإعدام (الذبح)، أو البراءة بشرط الحجة القوية.

الوصف بـ (بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ): السلطان هنا هو الحجة والبرهان القاطع الذي يظهر عذره بوضوح ويبين سبب غيابه.

*(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ): مفاجأة روائية وتغير مفاجئ في ميزان القوى الكلامي؛ الطائر الصغير الضعيف يواجه الملك العظيم بأقوى صيغة تعبيرية تقلب الموقف لصالحه.

الفعل فَمَكَثَ وقراءة نافع وعاصم: قرئت بفتح الكاف وضمهما، وهي تفيد الاستقرار لفترة وجيزة (غَيْرَ بَعِيدٍ) اختصاراً للزمن ودفعاً للقلق.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن): (ص880).

الجناس الصوتي البديع (المحسّن البديعي المعجز): (سَبَإٍ بِنَبَإٍ)؛ جناس اشتقاقي وتناغم صوتي يشد الأذن ويهيئ النفس لأمر عظيم.

التنكير والوصف (بِنَبَإٍ يَقِينٍ): النبأ هو الخبر العظيم ذو الأهمية الكبيرة، ووصفه بـ "يقين" ليدفع غضب سليمان ويثبت موقفه قبل التحقيق.

إشراقة بلاغية بيانية وتفسيرية: بلاغة الهدهد وتأويل ابن تيمية – رحمه الله - قوله (أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ) هي كلمة صاعقة من طائر لملك يملك الجن والإنس. يرى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - في هذه الآية دليلاً عقلياً قاطعاً على بطلان القول بأن الأنبياء أو الأئمة يعلمون الغيب مطلقاً؛ فها هو سليمان على عظم ملكه يخفى عليه حال أمة كاملة على بعد مسافة قريبة، ويعلمها هدهد. لقد ترفع الهدهد بعلمه ليحمي رقبته من الذبح.

*(إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ): يبدأ الهدهد بتقرير الواقع السياسي والاجتماعي لمملكة سبأ، عارضاً الأمر بذكاء صحفي استخباراتي بليغ.

التوكيد بـ (إِنِّي): لتثبيت المشاهدة العينية الجازمة، ثم التنكير في (امْرَأَةً): لاستغراب الهدهد الفطري؛ كيف تسوس امرأة أمة من الرجال؟ (وهي بلقيس).

التشابه والتباين اللفظي (وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ): استخدم الهدهد نفس العبارة التي قالها سليمان عن نفسه آنفاً (وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ)؛ ليعقد مقارنة ضمنية ذكية تثير فضول الملك وتجعله يدرك حجم هذه المملكة المنافسة.

الوصف بـ (عَرْشٌ عَظِيمٌ): العرش هو كرسي الملك، ووصفه بالعظيم يدل على فخامته المادية وصناعة عاصمتهم المتقدمة.

*(وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ).

هذا هو بيت القصيد في غياب الهدهد؛ لم يشغله جمال قصور سبأ ولا زينة ملكهم، بل صدمته الفطرية لرؤية الشرك بالله العظيم.

التكرار في (وَجَدتُّهَا): يربط بين الوجود الحسي للمملكة والوجود العقدي الفاسد.

المشاكلة اللفظية المعنوية مع الآية الرابعة: تتقاطع عبارة الهدهد (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ) تماماً مع التأسيس العام في مطلع السورة (زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُون). الشيطان يزين بالوسوسة، والله يقدر التزيين عقوبة وقضاءً، والنتيجة واحدة: (فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ).

إشراقة بلاغية بيانية وتفسيرية: توحيد الكائنات وفطرتها: يعلق سيد قطب – رحمه الله - هنا بإعجاب: إنها "فطرة التوحيد" في الحيوان والطير. الهدهد ينكر الشرك ويراه خللاً كونياً فادحاً يستحق التحرك العاجل لأجله. ويثبت ابن القيم – رحمه الله - أن الطيور والدواب أعرف بالله وبتوحيده من كفار بني آدم الذين طُمست بصائرهم بالهوى والعلو.

*(أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

تأصيل بلاغي يمثل فصاحة الهدهد ومناسبته لبيئته؛ فالطائر يستدل بعظمة الله من واقع تخصصه الحسي الحركي.

لفظ (الْخَبْءَ): الخبء هو الشيء المستور المخبوء، كالماء تحت الأرض (الذي يبصره الهدهد) أو المطر من السماء، أو النبات المنبثق. اختيار الهدهد لهذا اللفظ تحديداً إعجاز أسلوبي رائع؛ كأنه يعبد الله الذي يخرج رزقه المخبوء في طيرانه وبحثه.

المقابلة الشاملة السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ / (ويعلم ما تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ): تغطية كاملة وشاملة لعلم الله المحيط بالظواهر والبواطن، الأجرام والسرائر.

*(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩): كلمة التوحيد الكبرى وقاعدة الوجود، يختم بها الهدهد خطبته الاستخباراتية العصماء، معلناً سقوط كل عروش البشر أمام عرش الرحمن.

القصر والحصر بالنفي والاستثناء (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ): أعلى مراتب التوكيد اللساني للوحدانية.

المقابلة والموازنة البلاغية بين العرشين: قال الهدهد عن بلقيس سابقاً (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)، وهنا يقرر الحقيقة المطلقة: بل الله هو (لا إله إلا هو رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ). شتان بين عرش بلقيس المحدود المصنوع، وعرش الرحمن المحيط بالأكوان؛ وفي هذا تراجع وتوضيح بليغ من الهدهد لئلا يُفهم من كلامه الأول مساواة العروش.

*(قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ): عودة إلى سليمان الحاكم العادل؛ لم يأخذه الحماس الديني للخبر، ولم يغفر للهدهد غيابه فوراً بناءً على فصاحته، بل لجأ للتثبت المنهجي والقضائي.

السين في (سَنَنظُرُ): تفيد المستقبل القريب الحاسم الجاد، والفعل "ننظر" هنا بمعنى نتأمل ونتدبر ونختبر، وليس مجرد الرؤية البصرية.

المقابلة بين (أَصَدَقْتَ وكُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ): عدل عن قوله "أم كذبت" إلى صيغة (كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)؛ لأن الدخول في زمرة الكاذبين يفيد رسوخ الصفة وتكرارها، فكأن سليمان يختبر صدق الهدهد العارض في مواجهة طبعه الكامن.

(اذْهَب بِّكِتَابِي هُذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ): إصدار التوجيه العسكري والسياسي الأول؛ الهدهد يتحول من ناقل للخبر إلى رسول يحمل رسالة الدولة المؤمنة.

تتابع أفعال الأمر (اذْهَب) -> (فَأَلْقِهْ) -> (تَوَلَّ) -> (فَانظُرْ): سرعة برقية في النظم، تدل على الحسم الملوكي والخطوات المدروسة بدقة متناهية.

الأدب الدبلوماسي في (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ): أسلوبياً، تنحَّ جانباً لتعطيهم فرصة التشاور بحرية دون مراقبة مباشرة تمنعهم من إظهار حقيقة مواقفهم، وفي نفس الوقت فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (راقب ردود أفعالهم عن بُعد لمعرفة قرارهم النهائي).

*(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ): انتقال المشهد إلى قصر سبأ؛ بلقيس تجمع مجلس وزرائها ومستشاريها (الملأ) لمواجهة هذا التحدي الخارجي المفاجئ.

بناء الفعل لما لم يسم فاعله (أُلْقِيَ): لأنها لم ترَ مَن ألقاه بوضوح في بداية الأمر، أو لإظهار المفاجأة والطريقة الغريبة التي دخل بها الخطاب مخدعها.

التنكير والوصف (كِتَابٌ كَرِيمٌ): وصفت الكتاب بالكريم قبل معرفة كامل تفاصيله؛ إما لجمال خطه وختمه، أو لطريقة وصوله العجيبة عبر الطائر، أو لمضمونه الذي بدأ بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)، وهذا يدل على رجاحة عقلها وحسها السياسي.

*(إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ): كشف هوية المرسل ومضمون الرسالة المفتتحة بأعظم صيغ التوحيد والرحمة.

تكرار إِنَّهُ: الجملة الأولى لبيان المصدر السياسي والملك المرسِل (مِن سُلَيْمَانَ)، والجملة الثانية لبيان المرجعية العقدية والروحية للخطاب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ).

براعة الاستهلال الدبلوماسي: تقديم اسم المرسِل والبسملة يضفي الهيبة والجدية على الرسالة ويجعلها تسمو فوق المراسلات العادية.

*(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ): أوجز خطاب ملكي ودبلوماسي في التاريخ البشري؛ كلمات معدودة تختصر المطلب كله دون لف أو دوران أو تفاصيل حشو زائفة.

النهي الإيجازي (أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ): الكبر والعلو هو أس الفساد (كما قيل عن فرعون (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ) [النمل:14]، وسليمان يطالبهم بترك الاستكبار القومي والسياسي فوراً.

الأمر بـ (وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ): كلمة "مسلمين" تحمل هنا وجهين بلاغيين رائعين: إما سياسياً بمعنى مستسلمين منقادين لسلطان الدولة المؤمنة، وإما عقدياً بمعنى موحدين تائبين من عبادة الشمس، والجمع بينهما يعكس عمق التمكين السليماني.

*(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ): تأصيل لشورى الحكم عند الملكة بلقيس، ومقارنة أسلوبية وسياقية خفية بين طغيان فرعون الفردي المتفرد برأيه (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ) وبين الديمقراطية الاستشارية لملكة سبأ.

استعمال لفظ (أَفْتُونِي): الفتيا تكون عادة في النوازل العظيمة والأمور المشكلة، واستعارتها للمشورة السياسية تدل على تعظيمها لخطورة الموقف.

صيغة اسم الفاعل (قَاطِعَةً): تفيد الاستمرار والثبات؛ أي ليس من عادتي ولا طبعي الاستبداد بالرأي وفرض القرارات الاستراتيجية دون حضوركم ومشاركتكم (حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ)،أي: تحضرون للاستشارة.

*(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ): رد الملأ والوزراء؛ رد عسكري تقليدي يعكس ثقتهم المطلقة بقوتهم المادية، لكنهم مع ذلك يفوضون القرار النهائي لقيادتهم الحكيمة.

تكرار أُولُو: (أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ)؛ القوة ترمز للعدد والعتاد والعدة المادية، والبأس الشديد يرمز للشجاعة الفائقة والمراس القتالي في الحرب.

تقديم المسند إليه (وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ): قصر وتفويض كامل؛ كأنهم يقولون: نحن أدوات حرب وتنفيذ، أما التدبير والسياسة فهما تخصصك الفكري، فاخترعي ما ترينه مناسباً (فانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ).

*(قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

قراءة سياسية استراتيجية واعية جداً من بلقيس؛ تكبح بها جماح الحماس العسكري الأعمى لوزرائها، وتذكرهم بالمالات التدميرية للحروب.

التوكيد بـ (إِنَّ) والتعميم بـ (الْمُلُوكَ): تقرر قاعدة سياسية وتاريخية مطردة، وتنكير قَرْيَةً للعموم (أي قرية أو مدينة أو مملكة).

المقابلة البلاغية الصارخة: (أَعِزَّةَ) وضدها (أَذِلَّةً)؛ لتصوير الأثر الاجتماعي والسياسي والنفسي المدمر للغزو، حيث تُقلب البنية الاجتماعية ويُهان الشرفاء ويُمكّن للأراذل.

التذييل الرباني التوكيدي (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ): اختلف المفسرون فيها؛ يرى البغوي وابن عاشور أن هذا الجزء هو تصديق من الله سبحانه لكلام بلقيس، أي: وفعلاً هكذا هي عادة الملوك الفاتحين المستكبرين في الأرض.

*(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ): الخطة الدبلوماسية الذكية؛ استخدام سلاح "الاختبار بالمال" لمعرفة حقيقة سليمان وهل هو ملك دنيوي تغريه الأموال والمصالح، أم هو نبي صاحب رسالة لا يساوم على المبادئ.

صيغة اسم الفاعل (مُرْسِلَةٌ وفَنَاظِرَةٌ): تفيد العزم الفوري والترقب المستمر؛ الفاء عاطفة تفيد السببية المباشرة (الإرسال يعقبه مباشرة الانتظار والترقب الذكي).

التنكير في (بِهَدِيَّةٍ): تفيد التعظيم الفخم، أي بهدية عظيمة جداً لا تُرد ولا يُقاوم بريقها من الملوك التقليديين.

الاستفهام بـ (بِمَ يَرْجِعُ): ما الذي سيحملونه معهم من ردود أفعال نفسية وقولية، لتبني عليها مملكة سبأ قرارها الاستراتيجي القادم إما بالحرب أو بالسلم والاستسلام.

*(فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(44) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ

أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(55))

تنتقل الآيات في هذا الدرس بين ذروة القوة والتمكين التي أوتيها سليمان عليه السلام في تعامله مع ملكة سبأ، وبين مشهد المدافعة والمواجهة الصعبة التي خاضها صالح ولوط عليهما السلام. الرابط السياقي هنا هو "ميزان القوة الحقيقية"؛ كيف يتحرك الإيمان حين يملك السلطة والمادة (سليمان)، وكيف يتحرك الإيمان حين يواجه التكذيب والفساد المجرد من النصير (صالح ولوط).

*﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

تتجلى هنا عزة النبوة في مواجهة بريق المادة. بلقيس أرادت اختبار سليمان كـ "ملك" يُشترى بالمال، فجاء الرد الصاعق ليؤكد أنه "نبي" يحمل رسالة.

إشراقة بلاغية اسلوبية: الاستفهام في ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ هو استفهام إنكاري توبيخي تحقيري. والالتفات في ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ فيه إعراض عن خطاب الرسل المباشر ونقد للعقلية المادية التي تقيس العظمة بحجم الثروة الفانية.

يظهر هنا الرضا بالله وبما قسم الله، فما عند الله من النبوة والحكمة والعلم لا يمكن موازنته بكنوز الأرض.

ثم قال للمنذر بن عمرو أمير وفد بلقيس ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ) أي: بالهدية، (فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. تأكيد الفعل باللام والنون المشددة ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ يفيد قطعية التهديد وجديته.

البيان الدلالي: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا طاقة ولا قدرة لهم على مواجهتها. وجمع بين ﴿أَذِلَّةً﴾ (وصف لحالهم الخارجي بذهاب ملكهم) و﴿صَاغِرُونَ﴾، وصف لحالهم النفسي والقلبي بالانكسار، إن لم يأتوني مسلمين.

البعد الحركي: هذا هو الفهم الصحيح لـ "قوة الحق"؛ حين تملك الدعوة القوة المادية، لا يجوز لها المداهنة أو القبول بالحلول الوسط التي تبقي على الكفر والشرك.

*﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: انتقل بنا السياق فجأة بحذف الفراغات الزمنية (إيجاز الحذف) ليدل على سرعة استجابة ملكة سبأ ومجيئها.

ووجه استعجال سليمان عليه السلام في إحضار العرض ذكر صاحب زاد المسير وصاحب روح المعاني والبغوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :كان سليمان مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يسأل عنه، فجلس يوما على سرير ملكه فرأى وهجا قريبا منه فقال: ما هذا ؟ قالوا: بلقيس قد نزلت بهذا المكان، وكان قدر فرسخ ، وقد كان بلغه أنها احتاطت على عرشها قبل خروجها، فقال: (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ). والله أعلم [1].

إشراقة نفسية بلاغية: طلب سليمان العرش تحديداً؛ لأن العرش هو رمز الملك والسيادة. وأراد أن يريها آية تبهر عقلها وتكشف لها ضآلة قدرتها المادية أمام القدرة التي سخرها الله له، وذلك ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ حتى لا يكون أخذ العرش بعد إسلامهم اعتداءً على مال مسلم.

*﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

التحليل اللغوي والتفسيري: العفريت هو المارد القوي الشديد من الجن. و﴿مَّقَامِكَ﴾ هو مجلس قضائه وحكومته وكان يمتد من أول النهار إلى انتصافه.

قدم العفريت مؤهلاته بصيغة التوكيد ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾؛ فالقوة لنقل الثقل، والأمانة للمحافظة على الجواهر والنفائس التي بالعرش دون سرقتها.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾ سر التفاضل (ابن تيمية وابن القيم) – رحمهما الله -: هنا معركة مفاضلة بين "القوة البدنية الخارقة" (العفريت) و"القوة العلمية الإيمانية"* (الذي عنده علم من الكتاب). العلم بالله وبكتابه أقوى وأسرع نفاذاً من قوى الجن الإنسية والجنّية.

وقد خاض المفسرون واختلفوا في كون هذا (الذي عنده علم من الكتاب) هل هو من الجن أم من الإنس أم من الملائكة، ولكن الله بين وذكر أهم قدرة عنده، ألا وهي (عنده علم من الكتاب)، وبذلك فقط انتصر في معركة المفاضلة.

البيان البلاغي والنفسي: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ لم يتملكه الكبر ولم ينسب الفضل لنفسه، بل قال فوراً: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾. هذا هو قلب المؤمن التقي الذي يرى النعمة "ابتلاءً واختباراً للشكر" لا مكافأة للاستعلاء.

التذييل الحكيم: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ...﴾ بيان لغنى الله المطلق عن عباده وتأكيد لربوبيته الكاملة.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن): (ص882)، وانظر موقع إسلام ويب على الشبكة العنكبوتية.

(يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) أي: يعود نفع شكره عليه، وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها، لأن الشكر قيد النعمة الموجودة، وصيد النعمة المفقودة،

(وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ) عن شكره، (كَرِيمٌ) بالإفضال على من يكفر نعمه.

عن عبدِ اللهِ بنَ مسعودٍ قالَ إنَّ اللهَ قسَّمَ بينَكم أخلاقَكم كما قسَّمَ بينَكم أرزاقَكُم وإنَّ اللهَ يؤتي المالَ من يحبُّ ومن لا يحبُّ ولا يؤتي الإيمانَ إلَّا من أحبَّ [1].

مقارنة بين آية سورة لقمان (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) [لقمان:12] ، وهذه الآية (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [النمل:40]:

هذا التغيير اللفظي بين سورتي لقمان من أسرار الإعجاز البياني والقرآني البديع، ويُقرأ من خلال السياق العام لكل سورة والمقام الذي وردت فيه.

أولاً: اختلاف الفعلين: (يشكر) في لقمان و(شكر) في النمل: في سورة لقمان: جاء الفعل مضارعاً (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه)؛ لأن السورة تعرض وصايا لقمان لابنه، وهو مقام تأسيسٍ، وتربيةٍ، وتوجيهٍ مستمر يحتاج إلى التجدد والدوام. فالمضارع هنا يدل على الاستمرارية وتجدد الشكر، وكأن لقمان يغرس في ابنه أن الشكر يجب أن يكون ديدناً ملازماً للحياة في كل حين.

في سورة النمل: جاء الفعل ماضياً (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه)؛ لأنه جاء تعقيباً على موقف محدد لسيدنا سليمان -عليه السلام- حين رأى عرش بلقيس مستقراً أمامه فقال: (ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر...). هنا، جاء الفعل ماضياً لأنه جاء في سياق "الحدث المنقضي" (موقف الاختبار الفردي الذي اجتازه سليمان بنجاح)، لبيان النتيجة القطعية لمن وقع منه الشكر بالفعل.

ثانياً: اختلاف الاسمين: (الله) في لقمان و (ربي) في النمل: في سورة لقمان: ذُكر الاسم الجليل (فإن الله غني حميد)؛ لأن الآية هنا في سياق الحديث عن أصول العقيدة (إفراد الله بالعبودية، ترك الشرك، بيان عظمة الخالق). ومقام التوحيد يقتضي ذكر اسم الذات الأعظم (الله) لترهيب النفوس وتعظيم الخالق.

في سورة النمل: ذُكرت ياء المتكلم (فإن ربي غني كريم)؛ لأنها جاءت على لسان نبي الله سليمان -عليه السلام- (ليبلوني أأشكر أم أكفر). والمقام هنا مقام مَن

---

1 - أخرجه أحمد (3672)، والحاكم (94)، وابن أبي شيبة في ((المسند)) (344) بلفظه وفي آخره زيادة، صححه الألباني، واختلف في وقفه ورفعه.

يستشعر النعمة والقرب والمناجاة. فالنبي يتحدث بلسان العرفان والافتقار إلى الله في قوله "ربي"، ليؤكد أن المنعم عليه هو المربي والمتفضل جل وعلا.

ثالثاً: اختلاف الصفتين: (حميد) في لقمان و (كريم) في النمل: في سورة لقمان: خُتمت بـ (حميد)؛ لتناسب جو السورة المليء بالوصايا والأوامر، فالله "حميد" أي مستحق للحمد والثناء التام سواء شكره العباد أم كفروا، وهو الغني عن خلقه. كما أن البقاعي – رحمه الله - يرى مناسبة الختام بـ "حميد" لما في السورة من دعوة للعمل الصالح.

في سورة النمل: خُتمت بـ (كريم)؛ لأن السياق في سورة النمل يعج بمظاهر الجود والمنح العظيمة؛ كمنطق الطير، تسخير الريح والجن، وإحضار عرش بلقيس في طرفة عين. فمن أوتي هذه العطايا يدرك أن الله "كريم" يعطي بغير حساب، يتفضل بالنعم، ويستر العيوب، ويتجاوز عن الزلات.

*﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، التحليل النفسي البلاغي: ﴿نَكِّرُوا﴾ أي غيروا معالمه بزيادة أو نقصان. والهدف هو اختبار رجاحة عقلها وذكائها، فمن كان ذكياً في شؤون الدنيا قد يهديه ذكاؤه لتأمل آيات الله، أو ينظر هل ستعرف عرشها مع التغيير أم يلتبس عليها.

*﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

دقة اللفظ وسحر البيان: جوابها ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قمة الأدب والذكاء؛ لم تنفِ ولم تثبت إثباتاً قاطعاً لأنها تراه عرشها لكنه في مكان يستحيل عقلياً (بحسب المقاييس المادية) أن يصل إليه قبيل وصولها.

تداخل الأصناف: قوله ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ هو كلام سليمان عليه السلام، وهو إعلان بالسبق في العلم والإسلام لله عز وجل، تعريضاً بجهل قومها الذين عبدوا الشمس.

قال القرطبي – رحمه الله -: قوله تعالى: فلما جاءت يريد بلقيس، قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق، فلم تقر بذلك ولم تنكر، فعلم سليمان كمال عقلها. قال عكرمة: كانت حكيمة فقالت: كأنه هو. وقال مقاتل: عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها; ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم هو; وقاله الحسن بن الفضل أيضا. وقيل: أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوة وتؤمن به. وقد قيل هذا في مقابلة تعميتها الأمر في باب الغلمان والجواري. وأوتينا العلم من قبلها. قيل: هو من قول بلقيس; أي أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش (وكنا مسلمين) منقادين لأمره. وقيل: هو من قول سليمان أي أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة،

وقيل: وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها. وقيل : هو من كلام قوم سليمان. والله أعلم [1].

*﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، التفسير النفسي والاجتماعي: العقل البشري قد يكون ذكياً وذا بصيرة (كبلقيس)، ولكن "البيئة والوراثة والنشأة" ﴿مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ تشكل عائقاً وحجاباً – كما يقول الأستاذ محمد قطب – رحمه الله - يصده عن رؤية الحق. فالبيئة الفاسدة تصد النفوس عن التوحيد حتى لو كانت ذكية.

*﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي...﴾.

الصورة البلاغية والحركية: الصرح المُمرد هو القصر المصقول الواسع، والقوارير هي الزجاج. جرى جعل الماء يجري تحته فظنته لجة (ماءً عميقاً). هذا المشهد الحسي المبهر كان الصدمة الأخيرة لإسقاط كبريائها المادي.

اللحظة الإيمانية الحاسمة: حين انكشف لها أنّ ما رأته ماءً هو في الحقيقة زجاج صلب، انتبهت إلى أن عقيدتها السابقة (عبادة الشمس) كانت كمن ينظر إلى السراب! فقالت معترفةً تائبة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. لم تقل "أسلمت لسليمان" بل ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾، فالمؤمنون أكفاء في العبودية لله وحده.

*﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ينتقل السياق من "قمة التمكين والقبول" مع سليمان إلى "قمة التكذيب والصلف" مع صالح ولوط، ليعلم المؤمن أن السنن الإلهية متنوعة، وأن استكبار الأمم قد يبلغ حداً لا ينفع معه إلا الاستئصال.

البيان والأسلوب: الفاء في ﴿فَإِذَا﴾ هي فجائية تعقيبية، تشير إلى سرعة انقسام المجتمع فور مجيء الدعوة. فالحق يفرّق بين الناس؛ فريق مؤمن مستضعف وفريق كافر مستكبر، وتحدث الخصومة العقائدية والاجتماعية.

قال مقاتل: واختصامهم ما ذكره الله في سورة الأعراف: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ) [الإعراف:75-76] [2].

---

1 - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (ج13/ص207).

2 - البغوي: تمهيد تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص884).

.

*﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

المشركون كانوا يقولون بجهل: "ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين" (يستعجلون العذاب). فخاطبهم صالح بـ تلطف النبوة وأخوة النسب ﴿يَا قَوْمِ﴾: لماذا تطلبون العقوبة (السيئة) وتتركون الرحمة والتوبة (الحسنة)؟ و﴿لَوْلَا﴾ هنا للحض والتحضيض الرقيق طلبًا لنجاتهم.

*﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، التحليل اللغوي والنفسي: ﴿اطَّيَّرْنَا﴾ أصلها تطيرنا، أي تشاءمنا، قيل: إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم، وقيل: لأنّ الله أمسك عنهم المطر تلك السنة، الكافر يربط المصائب الدنيوية (قحط، مرض) بوجود أهل الإيمان.

الرد العقدي الحاسم: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي ما يصيبكم من خير أو شر هو بتقدير الله وجزائه على أعمالكم، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالخير والشر والمحن ليظهر خبثكم من طيبكم.

*﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، الإشراقة البلاغية والاجتماعية: الرهط هم الجماعة دون العشرة. وصفهم الله بـ ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾. تأكيد الإفساد بنفي الإصلاح يدل على أن إفسادهم كان محضاً وخالصاً، لا شائبة فيه للصلاح، وهم يمثلون "مراكز القوى العصابية" في المجتمع.

*﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

التناقض النفسي العجيب: من عجائب النفوس البشرية أن هؤلاء المجرمين يقسمون "بالله" على قتل نبي الله! فهم يعترفون بالله اسماً ويمارسون الجريمة عملاً.

الأسلوب: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ البيات هو الهجوم ليلاً بغتة، وهو شأن الجبناء. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مهلك أهله﴾ خططوا للجريمة ثم خططوا للمخرج السياسي والقانوني بالكذب المفضوح، وهذه حلقة في قصة صالح لم تعرضها السور الأخرى وهي محاولة قتل نبيهم غدراً بعد أن عقروا الناقة.

*﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، المقابلة البلاغية والمشاكلة: تنكير ﴿مَكْرًا﴾ في الموضعين يفيد التعظيم؛ مكرهم كان عظيماً في الغدر، ومكر الله كان أعظم في التدبير الخفي لإحباطهم.

التدبر العقدي: مكر الله هو إحاطته بأهل الباطل من حيث لا يحتسبون، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وطمأنينة للمؤمن أن المؤامرات مهما حُبكت فإن الله يبطلها بغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

*﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾

البيان والتصوير الفني: ﴿خَاوِيَةً﴾ سقطت سقوفها على جدرانها، كما في سورة والشمس وضحاها: (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) والشمس وضحاها:14] وأصبحت خالية من السكان. والسبب الجذري أعلنه النص بوضوح: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾، فالظلم هو مؤذن بخراب العمران وسقوط الدول والمدن.

الخاتمة الوعظية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، خص أهل العلم لأنهم هم الذين يربطون الأسباب بمسبباتها ويعتبرون بالتاريخ.

*﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، سنة الله الجارية: الإنجاء ليس صدفة، بل هو قانون إلهي. جمع بين الإيمان (العقيدة والقلب) والتقوى (العمل والامتثال).

*﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

التشخيص النفسي والبياني الشديد: تعريف الجريمة بـ ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ بالألف واللام للدلالة على أنها استغرقت كل معاني القبح والشناعة.

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ لها وجهان بلاغيان: تبصرون قبحها بعقولكم وفطرتكم، أو يفعلها بعضكم أمام بعض علانية دون حياء.

﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾: كشف لانحراف الفطرة، فالشهوة وُجهت لغير محلها الذي فطر الله البشر عليه لإعمار الأرض.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: الجهل هنا ليس ضد العلم البسيط، بل هو السفه، والطيش، وتعمّد ممارسة القبح مع العلم بحرمته (كما في قول الشاعر: ألا لا يجهلن أحدٌ علينا.. فنجهل فوق جهل الجاهلينا). إنه الجهل الإنساني الذي يفقد المرء بشريته ويردّه أسفل سافلين.

*(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56)فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (58) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

يَعْدِلُونَ (60) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(63) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (66) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (75))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة النمل إنما هي انعطافة موضوعية وهيكلية باهرة؛ تنتقل من مصارع الأمم (قصة لوط عليه السلام) كدليل تاريخي مشهود، إلى دلائل التوحيد الكونية والوجودية التي تبهر العقول، ثم تخلص إلى قضايا البعث والغيبيات والوحي.

*(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

الفاء عاطفة تعقيبية، تكشف المفاجأة بعد دعوة لوط لهم، كما أنّ استخدام أسلوب القصر بـ (ما... إلا) يفيد حصر الجواب في هذه الكلمة الفجة، وكأن عقولهم شُلّت عن أي محاجة عقلية.

التهكم والسخرية السوداء: في قولهم (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)، جعلوا "التطهر" جناية وعيباً يُنفى صاحبه بسببه! وفي هذا قلب للموازين الفطرية، أصحبت فطرتهم معكوسة منكوسة، هنا (ذم النقاء بلفظ المدح)، تنكير: (أُنَاسٌ) للتنفير والتبعيد، كأنهم جنس غريب لا يناسب بيئتهم الملوثة.

*(فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ): (قَدَّرْنَاهَا): ولم يقل "كتبناها" أو "جعلناها"؛ لأنّ لفظ التقدير هنا يشير إلى هندسة العدل الإلهي؛ حيث لزمتها صفة الهلاك نتيجةً لعملها وموالاتها للمجرمين.

أمّا قوله تعالى: (من الْغَابِرِينَ}: لغوياً الغابر: هو الباقي في العذاب، أو الهالك المنسي الذي طواه الزمن.

يلحظ سيد قطب – رحمه الله - هنا انقطاع أواصر النسب والزوجية أمام آصرة العقيدة. امرأة نبي تكون مع الغابرين لأنها انحازت للكفر. العاطفة والأواصر الدنوية لا تشفع للمجرم عند الله.

*(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ)، إشراقة بلاغية وبيانية: الـ تعبير بـ(وَأَمْطَرْنَا) مع نكرة موصوفة بـ (مَّطَرًا) يفيد التهويل والتعظيم (أي مطراً غير معهود، مطر حجارة).

تسمية العذاب "مطراً" فيه مشاكلة تهكمية؛ فالمطر غياث، لكنه هنا هلاك ورجس.

(فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ): ذم بليغ يُشعر بفظاعة العاقبة، والالتفات إلى وصفهم بـ (الْمُنذَرِينَ) لإقامة الحجة عليهم؛ فلم يُؤخذوا بغتة بل بعد إعذار وإنذار.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: قال سَعدُ بنُ عُبادةَ: لو رَأيتُ رَجُلًا مع امرَأتي لَضَرَبتُه بالسَّيفِ غيرَ مُصفَحٍ، فبَلَغَ ذلك رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أتَعجَبونَ مِن غَيرةِ سَعدٍ؟! واللهِ لَأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ مِنِّي، ومِن أجلِ غَيرةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا أحَدَ أحَبُّ إليه العُذرُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك بَعَثَ المُبَشِّرينَ والمُنذِرينَ، ولا أحَدَ أحَبُّ إليه المِدحةُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك وعَدَ اللهُ الجَنَّةَ [1].

*(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ): يقول البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر): لمّا فرغ من ذكر قصص الأنبياء وهلاك مكذبيهم، أمر نبيه بحمد الله على سلامة أوليائه وهلاك أعدائه، ويرى – رحمه الله - أنّ الأمر بالحمد هنا يعكس عظم الجناية؛ فكلما كان الخطب جللاً والشر مستطيراً، كان الخلاص منه نعمةً تستوجب حمداً أعظم.

إن نجاة المؤمنين وإهلاك المفسدين يبرزان بشاعة جرمهم الذي استوجب هذا الاستئصال الحاسم. كما يوضح ابن تيمية – رحمه الله - في تقريراته أن هلاك الظالمين ونجاة المستضعفين هو مظهر من مظاهر "المدافعة" الإلهية، وأنّ (الحمد لله) في هذا السياق هو إقرارٌ بأن الله قد أقام الحق ودفع الباطل، مما يؤكد أن جرم المكذبين كان عظيماً في كفره وتعديه.

إشراقة بلاغية بيانية (الالتفات والافتتاح)الأمر بـ (قُلْ): يؤكد ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) أنّ فعل الأمر موجه للنبي ﷺ، وفيه إعلان بتفرد

---

1 - أخرجه البخاري (7416) ومسلم (1499)، وأحمد (18168)، وأبو عوانة (5157) واللفظ لهم.

الله بالكمال وتنزيهه عن النقائص. والأمر هنا يحمل معنى التحدي للمشركين؛ ليَسمعوا النبي ومن معه يسبحون الله ويحمدونه على هلاك أمثالهم.

كما أنّ الاستئناف بـ (سَلَامٌ على عباده الذين اصطفى): هنا يحمل معنى الاطمئنان والأمن لصفوة الله بعد زوال الطغاة. هو طمأنينة للقلوب المؤمنة وسط عواصف الدمار والهلاك التي حلت بالمكذبين، والسلام هنا يعبر عن السكينة بعد زوال الخطر، وهو تعريض بمشركي مكة وجميع الظالمين أن دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

كما يشير محمد قطب – رحمه الله - في كتاباته الدعوية والتربوية إلى أن الاصطفاء هنا ليس تمييزاً عشوائياً، بل هو استحقاق نابع من إيمانهم وتمسكهم بالحق، وفي مقابلتهم بـ "الذين ظلموا"، تتجلى القاعدة اللغوية والقرآنية في التفريق بين الخبيث والطيب.

تقديم الجار والمجرور (لِلَّهِ): يفيد الحصر والاختصاص؛ أي أنّ الحمد كله مستحق لله وحده، سواء في النعماء أو في زوال أعداء الدعوة وتطهير الأرض من المفسدين.

الشفاء والتطهير: يرى ابن القيم – رحمه الله - في (مدارج السالكين) أنّ هلاك أعداء الله فيه شفاء لصدور المؤمنين من جهة، وتطهير للأرض من بذور الفساد من جهة أخرى. ولذلك، فإن الحمد على ذلك يتضمن الشكر لله على نعمة العافية وحفظ نظام العالم.

كما يبرز الإمام البغوي – رحمه الله - في تفسيره (معالم التنزيل) أن حمد الله في سياق هلاك المكذبين هو تسبيحٌ لله على عدله، وبيانٌ ساطعٌ على أنّ الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وأن جرمهم بلغ حداً لم يعد ينفع معه الإمهال، فكانت الإبادة أو الاستئصال هي النهاية الحتمية لهذا العِظَم في الجناية.

خلاصة المشهد: الآية تقرر حقيقة أن الحمد ليس مجرد شكر على النجاة الفردية فحسب، بل هو شهادةٌ بليغةٌ على قبح الجريمة التي ارتكبها المكذبون، حيث استوجبت تدخلاً إلهياً حاسماً لاقتلاع جذور الفساد. وفي الوقت ذاته، هي بلسمٌ وسلامٌ يربت على أكتاف المؤمنين (عباده الذين اصطفى) بأن العاقبة للتقوى وأن الحق باقٍ والباطل إلى زوال.

(آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ): استفهام إنكاري توبيخي تكمن بلاغته في وضعه الممكنات أمام المقارنة المستحيلة، تنزيلاً لجهل المشركين منزلة من يرى كفتين متقاربتين!

*(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

الالتفات اللساني الرهيب: بدأ بضمير الغائب (خَلَقَ. . .وَأَنزَلَ) ثم التفت فجأة إلى ضمير العظمة المتكلم (فَأَنبَتْنَا). هذا الالتفات يشد الانتباه ويوحي بالتدخل المباشر لقدرة الله سبحانه لإخراج هذه البهجة من الموت والتراب.

إشراقة بلاغية بيانية نفسية: (حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ): القرآن لا يخاطب العقل الجامد الفلسفي فحسب، بل يخاطب الوجدان الجمالي البشري. "البهجة" لمسة جمالية تفيض عن حاجة القوت والنزول المادي إلى آفاق التمتع النفسي بالخلق.

(مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا): نفي العجز الإنساني المطلق عن سر الحياة (الإنبات).

(أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ): فيها تورية ولغوية مزدوجة، أي: يميلون عن توحيد الله، يجعلون له أندادا وعدلاً ومثيلاً، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.

*(أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أإله مع الله، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

تكرار فعل (جَعَلَ) أربع مرات في آية واحدة؛ لترسيخ فكرة الهندسة والتقدير والتسخير؛ الأرض لم تأتِ مصادفة بل "جُعلت" بصنع فاعل حكيم مريد.

الانتقال من الأعلى (السماء والأمطار في الآية السابقة) إلى الأسفل والأقرب (الأرض، الأنهار، الرواسي، البحار).

(حَاجِزًا): إشارة لسانية معجزة لحفظ التوازن المائي والبيئي والملوحي في الكون. (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) خُتمت بالجهل لأنّ هذه الأمور تحتاج إلى علم وتفكر في القوانين الكونية.

*(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

هذه آية الفطرة والاضطرار. يذكر ابن القيم – رحمه الله - أن المشركين في حال الكرب والاضطرار يسقط عنهم زيف الشرك، وتخلص فطرهم لله وحده.

إشراقة بلاغية: (الْمُضْطَرَّ): جاءت بصيغة اسم المفعول المشدّد، لتدل على من أحاطت به الخطوب من كل جانب ولم يبق له سبب بشري.

(إِذَا دَعَاهُ): شرط وجوابه، يورث الطمأنينة المطلقة؛ فالدّعاء من المضطَّر مرادف وملازم للإجابة.

(قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ): توبيخ بقلة التذكر؛ لأن الفطرة كامنة بداخلهم لكنها مغطاة بالشهوة والغفلة.

*(أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

المقابلة البلاغية: الآية تجمع بين دافع الرهبة وتأمين الخوف {يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، وبين جلب الرغبة والنفع (يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا).

هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكانية بديعة: (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}؛ رحمة الله هي (المطر) والرياح المحملة رائحة المطر تتقدمه كالبشير المفرح.

التعقيب بـ (تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ): تنزيه عظيم يناسب علوّ مكان هدايته وإرساله للرياح.

*(أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

هذه الآية ترسي قياس الأولى والأقيسة العقلية الفطرية – كما يرى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: من يبدأ الخلق من العدم قادر بالضرورة وبطريق أولى على إعادته.

الآيات الخمس السابقة تضمنت دليلاً كونياً ونفسياً وتاريخياً، والآن في ختام هذه الجولات الخمس يأتي التحدي المفحم الصارم: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ).

لم يطلب منهم مجرد دعاوى، بل طلب "برهاناً" (وهو الحجة القاطعة النيرة الدالة على الصدق).

والدعاوى إن لم يقيموا عليها .. . بينات أصحابها أدعياءُ

*(قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

إشراقة بلاغية: تقديم الجار والمجرور والمنفي المحصور: (لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ). قصر صفة علم الغيب المطلق على الذات الإلهية، ونفيها عن الملائكة والإنس والجن.

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ): "أيان" اسم استفهام للزمان العظيم والمستقبل المهول. وجاء التعبير بـ (وَمَا يَشْعُرُونَ) لينفي عن الكفار أدنى درجات الإحساس والوعي بموعد الآخرة.

*(بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ)، التدرج والترقي الأسلوبي (الإضراب الإنتقالي):

: إشراقة بلاغية: تكرار (بل) ثلاث مرات في آية قصيرة واحدة هو من أعلى وأعجب أساليب البلاغة القرآنية (إضراب بعد إضراب).

(بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ): تلاحق وتكامل علمهم بالآخرة، قال مجاهد: يدرك (عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ) ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم، أي: بعد فوات الأوان، وقيل عجز وتلاشى علمهم عنها في الدنيا.

ثم أضرب إلى ما هو أشد ذماً: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا) في واقعهم الراهن في شك من الساعة، ثم أضرب إلى القاع والعمى التام: (بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ). والعمى أشد بكثير من الشك؛ فالشاك قد يبصر بصيصاً، أما الأعمى فمستغرق في الظلمة، وهو عمى القلب، قال الكلبي: هم جهلة بها.

*(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هنا يذكر الله منبع عماهم وشكهم؛ وهو القياس الفاسد والإنكار الحسي البليد. (أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا): استفهام إنكاري منهم، فيه تقديم الظرف الجار والمجرور لبيان استحالة البعث عندهم بعد صيرورتهم مادة أرضية تافهة.

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ): وصفهم للوحي والبعث بأنه مجرد حكايات وخرافات قديمة سُطّرت للتسلية أو التخويف، وهو هروب نفسي من مواجهة الحجج العقلية التي عجزوا عن ردها.

*(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)، هذا رد عملي تجريبي واقعي. بدلاً من الجدال النظري حول ما سيحدث في المستقبل (البعث)، يوجههم الله إلى النظر في الماضي المشهود على الأرض.

آثار هلاك الأمم السابقة لا تزال بادية باقية، والسنن التاريخية لا تتبدل. من استأصل المكذبين الأوائل وسواهم بالتراب والحجارة قادر على إفناء هؤلاء وبعثهم.

*(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)، الظلال التربوية والنفسية:

الخطاب للنبي ﷺ تسليةً له وتثبيتاً لقلبه الشريف الذي يكاد ينفطر أسى على كفرهم وتكذيبهم.

(وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ): نكرة في سياق النهي تفيد العموم، أي لا يدخل قلبك أي ضيق مهما صغر من مكرهم؛ فإن مكرهم تحت السيطرة الإلهية المحيطة بها.

*(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ).

البيان المعجز: (رَدِفَ لَكُم): عُدّي الفعل بحرف اللام (رَدِفَ لَكم) ولم يقل (رَدِفَكم). وفي لسان العرب هذا يفيد شدة القرب والالتصاق، كأنه خلفهم مباشرة يوشك أن يدركهم ويمسهم مساً.

كما أنّ (عَسَى): تفيد في كلام الله التحقق والوقوع الحتمي، لكنها صيغت بأسلوب التوقع البلاغي لزيادة الرعب والوجل في قلوب المستعجلين المتهكمين بالعذاب (وقد رَدِف لهم عذاب يوم بدر بعد سنوات قليلة).

*(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ): قال مقاتل: على أهل مكة حين لم يعجل عليه العذاب.

يتساءل ابن عاشور – رحمه الله -: ما وجه ذكر "الفضل" و"الشكر" بعد الاستعجال بالعذاب؟

ثمّ يجيب بأنّ وجهه بليغ جداً؛ تأخير العذاب والوقوف عند "عسى" وعدم إهلاكهم فوراً هو بذاته محض "فضل" وإمهال ورحمة من الله لعلهم يتوبون، ولكنهم يقلبون النعمة كفراً واستعجالاً فلا يشكرون هذا الإمهال.

*(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

الخاتمة والهيمنة البلاغية: (تُكِنُّ صُدُورُهُمْ): الكنّ هو الستر الشديد. قدّم ما تُكنّه الصدور على ما يُعلنونه؛ لأن علم الله بما خفي هو الأصل، والعلانية أهون بالتبعية، وهما عند الله سواء. وفي هذا تهديد مبطن للمشركين الذين يضمرون المكر لرسول الله.

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ): التاء في "غائبة" للمبالغة (أي شيء شديد الغيب والخفاء) في أي ركن من أركان الوجود والكون.

(إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ): أي قد علمها، وكتبها، كما جاء في تعريف القدر: علمٌ، كتابة مولانا، مشيئته، وعلمه وهو إيجاد وتقدير.

وهذا أسلوب قصر بالاستثناء، يختم السلسلة بالطمأنينة التامة للمؤمنين والوعيد الصارم للكافرين؛ فكل صغيرة وكبيرة، من جحود النفوس ونوايا المكر وحركات الكون ومواعيد العذاب والبعث، مقيدة ومسطورة في اللوح المحفوظ المبين الواضح الصادق.

*(إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(76)) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (81) ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ(88) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (90) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(93))

تأخذنا هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس الأخير من سورة النمل إلى ذروة الختام وجلال المشهد؛ حيث ينتقل السياق من تقرير هيمنة العلم الإلهي المحيط بكل غائبة، إلى هيمنة القرآن ومحكم قضائه في صراعات البشر (بني إسرائيل)، ثم يتدرج المقصد القرآني في معالجة القلوب الجاحدة وتشبيهها بالموتى، وصولاً إلى إقامة الآيات الكونية الكبرى وعلامات الساعة المشهودة (الدابة، الحشر، ونفخة الصور المذهلة)، وانتهاءً بحركة الكون الهائلة وتسيير الجبال.

*(إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)، الاتساق وسياق النظم:

يوضح البقاعي – رحمه الله – هنا المناسبة الباهرة: لما ذكر سبحانه في الآية السابقة أنّ كل غائبة في السماء والأرض هي في "كتاب مبين"، أتبع ذلك بأن هذا القرآن هو فرع من ذلك الكتاب المحيط، وجاء مهيمناً يفصل في أعقد القضايا التاريخية والدينية الغائبة التي اختلف فيها أهل الكتاب، مثل تلك القضايا المرتبطة بعيسى عليه السلام، وأحكام التوراة، والنسخ، وغير ذلك كثير.

إشراقة بلاغية اسلوبية: افتتاح الآية بـ (إنّ) المؤكدة، واسم الإشارة القريب (هَٰذَا) لتفخيم شأن القرآن وتقريبه ليكون حاضراً في الأذهان كحَكَمٍ قاطع.

استخدام الفعل (يَقُصُّ): والقصص في اللسان العربي هو تتبع الأثر بدقة وإصابة الواقع دون زيادة أو نقصان؛ فالقرآن لا يروي حكايات، بل يتبع الحق التاريخي ليقطع دابر الخلاف.

*(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ): دخول لام المزحلقة المؤكدة (لَهُدًى) بعد (إنّ) لترسيخ الصبغة الوظيفية للقرآن.

كما أنّ تنكير (هُدًى) و(رَحْمَةٌ) يفيد التعظيم والاتساع (هداية مطلقة ورحمة شاملة).

خص (لِّلْمُؤْمِنِينَ) لأنهم هم الذين فتحوا قلوبهم لتلقي أنوار القرآن، فاستحال النور في أرواحهم هداية سلوكية ورحمة تنعكس على واقعهم الحركي، بينما بقي الكافرون معزولين عن هذا الفيض.

*(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي) يفصل، (بَيْنَهُم) بين المختلفين في الدين يوم القيامة، (بِحُكْمِهِۦ) وحكمه الحق، (وَهُوَ الْعَزِيزُ) المنيع، فلا يرد له حكم، (الْعَلِيمُ)، بأحوالهم، فلا يخفى عليه شيء.

البلاغة والأسماء الحسنى: يلحظ ابن القيم – رحمه الله - التناسب الإعجازي في تذييل الآية باسمي (الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)؛ فالقضاء والفصل بين المختلفين يتطلب صفتين مطلقتين: العلم المحيط بالحق من الباطل لئلا يقع ظلم، والعزة والقدرة النافذة لتنفيذ هذا الحكم فلا يمتنع منه أحد.

إضافة الحكم إلى ضميره سبحانه (بِحُكْمِهِ) تشريف للقضاء وتأكيد على عدالته المطلقة.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ): الفاء فصيحة تفيد تفريع الأمر بالتوكل على الله، على ما سبق تقريره من عزة الله وعلمه؛ أي: إذا كان ربك هو العزيز العليم القاضي، فثق به واعتمد عليه.

تعليل الأمر بالتوكل بجملة مؤكدة: (إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ). والوصف بـ (الْمُبِينِ)، أي: الواضح المظهر لغيره، يعطي الداعية صلابة نفسية ويقينًا مطلقًا يبدد وحشة الطريق أمام تكذيب الجاحدين.

*(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)، هنا ما يسميه البلاغيون: الاستعارة التصريحية والتمثيلية البلاغية الباهرة:

استعارة تصريحية، حيث شبه الله سبحانه وتعالى الكافرين المعاندين بالموتى، بجامع انعدام الانتفاع (فالميت لا ينتفع بالنداء، والكافر لا ينتفع بالدعوة).

واستعارة تمثيلية: تشبيه حال الرسول ﷺ في دعوته للمكذبين بحال من يدعو موتى لا يسمعون، أو صُمّاً أعرضوا وولّوا هاربين.

وما يسمونه الإيغال (زيادة التوكيد): في قوله تعالى: (إذا ولوا مدبرين) وهو من المحسنات البديعية. فقد أكد الله عجز الأصم عن السماع حين يكون مقبلاً ومواجهاً (حيث يمكنه قراءة الشفاه أو الحركات). فكيف إذا اجتمع الصمم مع الإدبار والابتعاد؟ وهو تصوير دقيق لاستحالة الهداية وقمة الإعراض

فهو انتقال أسلوبي لتعزية النبي ﷺ؛ في تشبيه الكفار بـ {الْمَوْتَىٰ} في انقطاع استجابتهم، وبـ {الصُّمَّ} في عدم انتفاعهم بحاسة السمع.

كما أنّ المبالغة مذهلة في الوصف اللساني: لم يكتفِ بوصفهم بالصم، بل أضاف حالاً مشهدية تمنع وصول الصوت تماماً: {إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}. فالأصم قد يفهم بالإشارة إذا كان مواجهاً لك، فإذا جمع الصممَ مع الهروب والإدبار، استحال بلاغياً ونفسياً أن تصيبهم الدعوة.

*(وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)

استخدام الباء الزائدة في خبر ما النافية (بِهَادِي) لتأكيد نفي الفاعلية والتأثير البشري في هداية التوفيق.

أسلوب القصر الحصري: (إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ)؛ فالسمع الحقيقي في الميزان القرآني ليس مجرد التقاط الأذن للذبذبات، بل هو استجابة القلب وإذعان الجوارح الخاضعة (فَهُم مُّسْلِمُونَ).

*(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ):

معنى (وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ) أي وجب العذاب وحقت كلمة الغضب بإصرارهم على الجحود، وانقطعت مرحلة الابتلاء والبيان البشري بالأنبياء.

هنا تحدث المفارقة الإلهية: عندما عجز البشر (بعيّ عقولهم وبلادتهم) عن تصديق النبي الناطق بالحق الإنساني البليغ، أنزلهم الله منزلة دون الآدمية، فأخرج لهم "دابة" صامتة من طين الأرض لتخاطبهم وتوبخهم!

قراءة يعقوب وعاصم وحمزة الكسائي وخلف العاشر بفتح الهمزة (أَنَّ النَّاسَ) تعود لتعليل خروج الدابة؛ بسبب فقدان اليقين الكوني، وقرأ الباقون بكسرها، فتكون استئنافيه، من كلام الدابة. والله أعلم.

(وقَعَ) بمَعنى: وجَبَ، وفي الْمُرادِ بالقَولِ ثَلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: العَذابُ، قاله ابنُ عَبَّاسٍ. والثَّاني: الغَضَبُ، قاله قَتادةُ. والثَّالِثُ: الحُجَّةُ، قاله ابنُ قُتَيبةَ. ومَتى ذلك؟ فيه قَولانِ: أحَدُهما: إذا لَم يَأمُروا بمَعروفٍ، ولَم يَنهَوا عَن مُنكَرٍ، قاله ابنُ عُمَرَ، وأبو سَعيدٍ الخُدريُّ. والثَّاني: إذا لَم يُرْجَ صَلاحُهم، حَكاه أبو سُليمانَ الدِّمَشْقيُّ، وهو مَعنى قَولِ أبي العاليةِ. والإشارةُ بقَولِه: عليهم، إلى الكُفَّارِ الذينَ تَخرُجُ الدَّابَّةُ عليهم... قَولُه تعالى: تُكَلِّمُهُمْ قَرَأ الأكثَرونَ بتَشديدِ اللَّامِ، فهو مِنَ الكَلامِ. وفيما تُكَلِّمُهم به ثَلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّها تَقولُ لَهم: إنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يُوقِنونَ. قاله قَتادةُ.

والثَّاني: تُكَلِّمُهم ببُطلانِ الأديانِ سِوى دينِ الإسلامِ. قاله السُّدِّيُّ.

والثَّالِثُ: تَقولُ: هذا مُؤمِنٌ، وهذا كافِرٌ. حَكاه الْماوَرْديُّ) .

وقال ابنُ كثيرٍ: (هَذِه الدَّابَّةُ تَخرُجُ في آخِرِ الزَّمانِ، عِندَ فسادِ النَّاسِ وتَركِهم أوامِرَ الله، وتَبديلِهم الدِّينَ الحَقَّ، يُخرِجُ اللهُ لَهم دابَّةٌ مِنَ الأرضِ -قيل: من مَكَّةَ. وقيلَ: من غَيرِها).

وقال السَّعديُّ: (إذا وقَعَ على النَّاسِ القَولُ الذي حَتَمَه اللهُ وفَرَضَ وَقْتَه أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً خارِجةً مِنَ الْأَرْضِ أو دابَّةٌ من دَوَابِّ الأرضِ لَيسَت مِنَ السَّماءِ. وهَذِه الدَّابَّةُ تُكَلِّمُهُمْ أي: تُكَلِّمُ العِبادَ أنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنونَ، أي: لأجلِ أنَّ النَّاسَ ضَعُفَ عِلمُهم ويَقينُهم بآياتِ الله، فإظهارُ الله هَذِه الدَّابةَ من آياتِ الله العَجيبةِ؛ ليبَيِّنَ للنَّاسِ ما كانوا فيه يَمتَرونَ.

وهَذِه الدَّابَّةُ هيَ الدَّابَّةُ الْمَشهورةُ الَّتي تَخرُجُ في آخِرِ الزَّمانِ وتَكونُ من أشراطِ السَّاعةِ، كما تَكاثَرَت بذلك الأحاديثُ ولَم يَأتِ دَليلٌ يَدُلُّ على كيفيَّتِها ولا من أيِّ نَوعٍ هيَ، وإنَّما دَلَّتِ الآيةُ الكَريمةَ على أنَّ الله يُخرِجُها للنَّاسِ، وأنَّ هذا التَّكليمَ مِنها خارِقٌ للعَوائِدِ الْمَألوفةِ، وأنَّه مِنَ الأدِلَّةِ على صِدْقِ ما أخبَرَ اللهُ به في كِتابِه. واللهُ أعلَمُ) .

وقال أيضًا: (لَم يَذكُرِ اللهُ ورَسولُه كيفيَّةَ هَذِه الدَّابَّةِ، وإنَّما ذَكَرَ أثَرَها، والمَقصودَ مِنها، وأنَّها من آياتِ الله تُكَلِّمُ النَّاسَ كلامًا خارِقًا للعادةِ حينَ يَقَعُ القَولُ على النَّاسِ، وحينَ يَمتَرونَ بآياتِ اللهِ، فتَكونُ حُجَّةً وبُرهانًا للمُؤمِنينَ وحُجَّةً على الْمَعانِدينَ).

وقال أحمَد شاكِر: (الآيةُ صَريحةٌ بالقَولِ العَرَبيِّ أنَّها دابَّةٌ، ومَعنى الدَّابَّةِ في لُغةِ العَرَبِ مَعروفٌ واضِحٌ، لا يَحتاجُ إلى تَأويلٍ... ووَرَدَت أحاديثُ كثيرةٌ في الصِّحاحِ وغَيرِها بخُروجِ هَذِه الدَّابَّةِ الآيةِ، وأنَّها تَخرُجُ آخِرَ الزَّمانِ. ووَرَدَت آثارٌ أُخَرُ في صِفَتِها، لَم تُنسَبْ إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الْمُبَلِّغِ عَن رَبِّه، والمُبَيِّنِ آياتِ كِتابِه؛ فلا علينا أن نَدَعَها).

وعَن أبي أُمامةَ الباهِليّ رَضِيَ الله عَنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: تَخرُجُ الدَّابَّةُ فتَسِمُ النَّاسَ على خَراطيمِهم، ثُمَّ يُعَمَّرونَ فيكم حَتَّى يَشتَريَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ، فيقالَ: مِمَّنِ اشتريتَ؟ فيَقولُ: مِنَ الرَّجُلِ الْمُخْطَمِ.

قال ابنُ الأثيرِ: (خَطَمَ)... من خَطَمْتُ البَعيرَ: إذا كَوَيْتَه خَطًّا مِنَ الأنفِ إلى أحَدِ خَدَّيه، وتُسَمَّى تِلكَ السِّمةُ الخِطامَ) [1].

*(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)، التهويل والترويع المشهدي: الالتفات إلى الغيب المستقبلي المهيب؛ ولحاق كلمة العذاب في الحشر.

تخصيص الحشر هنا لـ (فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ)، وهم القادة والزعماء الصادّون، وهذا حشر مقدمة العذاب قبل الحشر العام.

الدلالة اللسانية لـ (يُوزَعُونَ): من الوَزْع وهو الحبس والمنع؛ أي يُساقون ويُدفعون أولهم على آخرهم مقيدين بنظام صارم كالقطعان الذليلة، مما يوحي بالانكسار والمهانة، بخلاف (يوزعون) السابقة في جند سليمان، فتلك دلالتها على التنظيم لذلك الجند العظيم، وسيطرة قائدهم سليمان عليه السلام عليهم، وشدة طاعتهم له. والله أعلم.

*(حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

التقريع والتبكيت الفلسفي العقلاني: الآية ترسي قاعدة معرفية كبرى ذمها ابن تيمية – رحمه الله - فيمن ينكرون الغيبيات دون علم: تكذيبهم لآيات الله جاء دون بحث أو إحاطة معرفية، بل بمجرد الهوى والجهل الحسي (وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا).

الاستفهام التوبيخي الصارم في (أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تنزيل وتصغير لكل أعمالهم الدنيوية التي تشاغلوا بها عن الحق؛ فغدت هباءً لا وزن له.

*(وَوَقَعَ الْقَوْلُ) وجب الغذاب، (عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا) بما أشركوا، (فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ)، الإشراقة البلاغة النفسية والمقابلة:

في الدنيا كانوا يجادلون ويكذبون ويقولون "أساطير الأولين"، أما هنا فقد لزمتهم الحجة وخرست الألسن (فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ).

السبب صريح وجلي: (بِمَا ظَلَمُوا)؛ فالباء سببية، والظلم هنا هو تجاوز الفطرة والشرك. وحين يقع القول، يسقط كل معتذر وتُشلّ القوى.

---

1 - المصدر: https://dorar.net/aqeeda/1986، وانظر الدرر السنية.

*(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

الاتساق والالتفات البديع: بعد أنّ أخذهم السياق إلى أهوال القيامة الصامتة المروعة، عاد والتفت بهم فجأة إلى حاضرهم المشهود تذكيراً بالنعم واستدلالاً بالإحياء بعد الإماتة.

الخيار الأسلوبي المعجز: قال (اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ)، (ليسكنوا) اللام للعلة والغاية، بينما وصف النهار بأنه هو نفسه (مُبْصِرًا)، وهذا ما يسميه البلاغيون (مجاز عقلي بليغ)؛ فالنهار لا يُبصِر بل يُبصَر فيه، فكأن النهار لشدة ضيائه امتلأ بالحياة والرؤية حتى أصبح هو المبصر، وهذا اسلوب من أساليب العرب البليغة، حيث استُعمل اسم الفاعل (مُبصِراً) وأُريد به اسم المفعول (مُبصَراً) أي: "مُبصَراً فيه"، أي جعله الله مضيئاً بحيث يُبصِر فيه الخلائق ويبصرون به الأشياء

وهي إشارة إيحائية ليلية ونهارية تشبه الموت (السكون) والبعث (الحركة والإبصار).

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)

الالتفات الزمني البديع: بدأ بالفعل المضارع المستقبلي الدال على التجدد والحدوث (يُنفَخُ)، ثم عطف عليه بالماضي الثابت التحقق المتيقن (فَفَزِعَ) للإشعار بأن الفزع أمر مقضي ومفرغ منه لا محالة بمجرد النفخ.

الاستثناء البلاغي (إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ) يسكب أمنًا وطمأنينة على قلوب الأولياء كالملائكة والأنبياء والمقربين أو الشهداء، وسوف يأتي أن كل من جاء بالحسنات مستثنى من الفزع.

(دَاخِرِينَ): لغوياً الداخر هو الصاغر الخاضع الذليل؛ انقلاب تام لكبرياء المشركين في الدنيا إلى ذلة مطلقة أمام جلال الملكوت.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

الإعجاز التصويري والبياني: الخطاب بـ (وَتَرَى) مستنهض للمشاهدة، فالرؤية هنا بصرية.

(تَحْسَبُهَا جَامِدَةً): الحسبان هنا يدل على وهم الرائي وظاهر نظر العين البشري القاصر القائم على الثبات، بينما الحقيقة والواقع الرباني المهيب المزلزل أنها تسير وتتفتت (تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) خفة وسرعة وانسياباً بفعل قوى القيامة، وقيل هي إشارة مبطنة لحركتها في الدنيا أيضاً تبعاً لحركة الأرض.

إشراقة في بلاغة الثناء والتذييل: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ): جاء لفظ "الصنع" بدلاً من "الخلق"، لأن الصنع يدل على التركيب البديع القائم على الإتقان والترتيب المحكم لتسيير هذا الكون وتحويله من حال إلى حال لخدمة الحكمة الإلهية.

تذييل الآية بـ (نَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) يربط بين إتقان الصنع الكوني وبين رقابته سبحانه الدقيقة على أفعال العباد ونواياهم، تمهيداً لحسابهم العادل.

*(مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ): تأتي هذه الآية تعقيبًا على مشهد النفخ في الصور في الآية السابقة (فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ). يقول البقاعي ما معناه: لما ذكر الفزع العام، استثنى هنا أهل الحسنة ليبين كرامتهم بالأمن. واستخدام صيغة الشرط (مَن جَاءَ) يفيد العموم والوعد القاطع.

(جَاءَ بِالْحَسَنَةِ): لم يقل "من عَمِلَ حسنة"، بل قال "جاء بها"؛ ليوحي بأن العبرة ليست بمجرد العمل في الدنيا، بل بالقدرة على الحفاظ عليه حياً ومقبولاً حتى يوافي به العبد ربه يوم القيامة، دون أن يحبطه رياء أو شرك أو مظالم.

التنكير في (حَسَنَةِ) و(خَيْرٌ): يفيد التعظيم. الحسنة الواحدة (وأعلاها التوحيد) تقابل بجزاء عظيم.

(فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا): صيغة تفضيل. وهنا يبرز ابن القيم – لاحمه الله - لطيفة تدبرية: الخيرية هنا ليست لأن العمل قليل والثواب كثير فحسب، بل لأن الثواب من فضل الله وجوده، وفضل الله خيرٌ من عمل العبد وأبقى.

التقديم والتأخير في (وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ): تقديم الجار والمجرور (مِّن فَزَعٍ) على الحكمة المشتقة (آمِنُونَ) يفيد الاختصاص والاهتمام؛ أي: أمنهم ليس كأي أمن، بل هو أمنٌ مخصوص من ذلك الفزع الأكبر المذكور آنفاً.

يرسم سيد قطب – رحمه الله - هنا مشهد الطمأنينة وسط العاصفة الكونية: "الكون كله يرتجف، والخلائق كلها تفزع، ولكن هذه القلوب الموصولة بالله تظل في مأمن من الفزع، ترفرف عليها السكينة، ويظللها السلام".

مشهد السقوط المذل: *(وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

المقابلة البلاغية: تقابل الآية تمامًا الآية السابقة (الحسنة ضد السيئة، الأمن ضد الكبّ في النار).

(فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ): الكبّ هو الإلقاء على الوجه. وتخصيص "الوجوه" بالذكر؛ لأن الوجه هو أشرف أعضاء الإنسان ومجمع محاسنه، فإذا أُذِلَّ الوجه بالكبّ في النار، كان ذلك غاية المهانة والتحقير. وجاء الفعل مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله، لبيان أنّ الفعل يقع بقوة قاهرة بمجرد المجيء بالسيئة، الشرك والذنوب التي لم يتب منها.

عن أبي ذرٍ الغفاري رضي الله عنه: قلتُ يا رسولَ اللهِ أوصِني قال إذا عمِلْتَ سيِّئةً فأتْبِعْها حسنةً تَمْحُها قال قلتُ يا رسولَ اللهِ أمِنَ الحسناتِ لا إلهَ إلَّا اللهُ قال هي أفضَلُ الحسناتِ[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيما يَحكي عن رَبِّه عَزَّ وجَلَّ، قال: أذنَبَ عَبدٌ ذَنبًا، فقال: اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تَبارَكَ وتَعالى: أذنَبَ عَبدي ذَنبًا، فعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، ويَأخُذُ بالذَّنبِ، ثُمَّ عادَ فأذنَبَ، فقال: أي رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تَبارَكَ وتَعالى: عَبدي أذنَبَ ذَنبًا، فعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، ويَأخُذُ بالذَّنبِ، ثُمَّ عادَ فأذنَبَ، فقال: أي رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تَبارَكَ وتَعالى: أذنَبَ عَبدي ذَنبًا، فعَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، ويَأخُذُ بالذَّنبِ، اعمَلْ ما شِئتَ فقد غَفَرتُ لَكَ، قال عبدُ الأعلى: لا أدري أقال في الثَّالِثةِ أوِ الرَّابِعةِ: اعمَلْ ما شِئتَ[2]..

وفي محكم التنزيل: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) [الفرقان:70].

الالتفات الرقمي: انتقل من صيغة المفرد في الشرط (وَمَن جَاءَ) إلى صيغة الجمع في الجزاء (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ)؛ للإشارة إلى كثرة أهل السيئات وتراكمهم في النار.

ينقل البغوي عن المفسرين أن السيئة هنا هي الشرك، ويؤصل ابن تيمية هنا قاعدة العدل الإلهي من خلال الاستفهام الإنكاري في ختام الآية: (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)؛ فالجزاء ليس ظلمًا، بل هو تجسيد وتصوير لنفس الأعمال السيئة التي اقترفوها في الدنيا، انقلبت عليهم ناراً وإذلالاً.

إعلان العبودية وتحديد الهوية الرسالية: *(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

بعد تفصيل مصير البشر (محسنهم ومسيئهم)، يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ ليعلن براءته من شرك مكة، ويحدد وظيفته بوضوح تبيانًا لـ "لماذا يسير المؤمن في طريق الإحسان؟".

إشراقة بلاغية بيانية: الحصر بـ (إِنَّمَا): يفيد قصر مأمورية النبي ﷺ على هذه الأمور الأساسية؛ قطعاً لأطماع كفار قريش في أن يساوموه على دينه.

---

1 - أخرجه أحمد (21487) بلفظه، والترمذي (1987)، والدارمي (2833) كلاهما بنحوه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات إلا أن شمر بن عطية حدث به عن أشياخه عن أبي ذر ولم يسم أحدا منهم

2 - أخرجه مسلم (2758) وأخرجه البخاري (7507) باختلاف يسير

الإشارة بـ (هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ): التعبير بـ "هذه" (اسم الإشارة للقريب) فيه استحضار لـ "مكة" وتعظيم لشأنها وهي موطن الخطاب.

الوصف بـ (الَّذِي حَرَّمَهَا): يذكر ابن عاشور – رحمه الله - أنّ في هذا امتناناً على أهل مكة؛ فالله هو الذي جعل بلدهم حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم وهم آمنون، فكيف يعبدون غير الذي أمنهم؟!

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش:3-4].

الاحتراس والتعميم البلاغي (وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ): بعد أن أضاف الربوبية للبلدة (تشريفاً لها)، خشي دلالة التخصيص المحض، فعقّب بالجملة الحالية/الاعتراضية (وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ) لإثبات الملكية العامة لكل الكون، فلا يظن ظانٌّ أن ربوبيته مقصورة على مكة.

يؤكد محمد قطب – رحمه الله - في فقه الدعوة أنّ هذه الآية تمثل تجريد التوحيد. فالداعية يبدأ بـ استسلام مطلق وعقيدة محددة المعالم: (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)؛ فالإسلام هنا ليس مجرد شعار، بل هو انقياد تام لله، يتقدم فيه القائد (الرسول) صفوف المستسلمين لأمر الله.

منهج الدعوة والمسؤولية الفردية: (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ)

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ): التلاوة هنا ليست مجرد قراءة حروف، بل هي أقرار ما جاء فيه بالقلب والجوارح، والعمل به بالقلب والجوارح، وتبليغه، والدعوة إليه، وتبيين لمعانيه. القرآن هو أداة التغيير الكبرى.

الفصل والحصر (فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ): استخدام (إنما) مع لام النفع المستقر في {لنفسه} يبين أن الإيمان لا ينفع الله شيئاً، بل منفعته ذاتية راجعة للمهتدي وحده.

المقابلة الناقصة: في المقابل قال: (وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ)، ولم يقل "فإنما يضل عليها"، وإن كان المعنى مفهوماً ومذكوراً في آيات أخرى، بل عدل عن ذلك إلى إبراز وظيفة الرسول: من سقط في الضلال فليتحمل مسؤوليته التامة، والرسول ليس مسيطراً ولا حفيظاً، بل هو منذر فحسب، (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) [الشورى:48]..

يوضح ابن القيم – رحمه الله - أنّ في قوله (فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) تسلية للرسول ﷺ، وإخلاء لسيادته من تبعات عنادهم. فالدعوة بلاغ، والهداية بيد الله والتوفيق اختيار العبد؛ وهذا يمنح الداعية طمأنينة ألا تذهب نفسه عليهم حسرات.

الختام الكوني الرهيب: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

البلاغة والنظم والبيان: افتتاح الختام بـ (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ): الحمد هنا هو حمد الخاتمة الشامل، حمدٌ على وضوح المحجة، وحمدٌ على إقامة الحجة، وحمدٌ على إنزال هذا الكتاب.

فكما أمره سبحانه أن يحمد الله لمّا فرغ من ذكر قصص الأنبياء وهلاك مكذبيهم، أمره أن يحمده كذلك بعد وضوح المحجة، يحمده على إقامة الحجة، وعلى إنزال هذا الكتاب.

السين في (سَيُرِيكُمْ): سين الاستقبال القريب. والآيات المرئية تشمل آيات الآفاق والأنفس (بدر، فتح مكة، الموت، القيامة).

(فَتَعْرِفُونَهَا): الفاء عاطفة تفيد السرعة والترتيب. ستقرون بها معرفة اضطرار حين لا ينفع الإقرار.

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ): هذا تذييل في غاية الروعة البلاغية؛ جاء لتهديد المعاندين وتثبيت المؤمنين.

صيغة المبالغة والنفي بـ "الباء": دخلت الباء الزائدة مؤكدةً النفي (بِغَافِلٍ)، لنفي أدنى تلبّس بالغفلة عن الله عز وجل.

إضافة الرب إلى الكاف (رَبُّكَ): إرساء لوعاء الطمأنينة والخصوصية لرسول الله ﷺ؛ فهو ربه الذي يكلؤه ويرعاه ويدبر له، وسيجازي هؤلاء المكذبين على ما يعملون.

خلاصة: إن هذه الخاتمة لسورة النمل تلخص حركة العقيدة: مشهد أخروي يحرك القلوب رهبةً ورغبة (فزع وأمن / كبّ في النار).

وتحديد الهوية والمنهج في الدنيا (العبودية لله، والانتماء للإسلام)، والوسيلة والمنهج (تلاوة القرآن والإنذار).

النهاية الحتمية (رؤية الآيات الكونية والوقوف بين يدي الله الذي لا يغفل عن شيء).

*

سورة القصص

تسمية السورة

سورة القَصَص، وهو الاسم التوقيفي الأساسي الذي ورد في كتب التفسير والسنة والمصاحف. وقد سُميت بذلك لوقوع لفظ) القصص (فيها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾،

وقد يطلق عليها أسماء أخرى احتهاداُ مثل سورة موسى، وهنا نحتاج إلى ما يميزها عن باقي السورة التي ذكر فيها موسى عليه السلام.

كما يطلق عليها سورة (طسم القصص)، وهذا واضح، يؤيد ذلك ما ورد عن شيخ الإسلام رحمه الله أن الحروف المقطعة في أوائل السور هي أسماء لهذه السور، والله أعلم.

قال القرطبي: مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة وقال ابن سلام :بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهي قوله عز وجل : إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد وقال مقاتل :فيها من المدني : الذين آتيناهم الكتاب إلى قوله : لا نبتغي الجاهلين وهي ثمان وثمانون آية [1].

كما اختلفت مدارس العد في عد آياتها فقيل 88، وقيل 89، وهو خلاف في الوقف والوصل، فقد تعد مدرسة (طسم) آية مستقلة، بينما تعدها مدرسة أخرى آية مع ما بعدها.

سبب نزول بعض آياتها:

عن المسيب بن حزن رضي الله عنه قال: مَّا حضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ، دخَلَ عليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعِندَه أبو جَهلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ، فقال: أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، كلمةً أُحَاجُّ لك بها عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فقال له أبو جَهلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، أتَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ؟ فلَمْ يَزالا يُكلِّمانِهِ، حتَّى كان آخِرُ شيءٍ كلَّمَهم به: على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَأَستغفرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك؛ فنزلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: 113]، ونزلَتْ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: 56][2].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

1 - القرطبي: تفسير القرطبي (ص ؟؟).
2 - أخرجه البخاري (4772)، ومسلم (24)، والنسائي (2035) واللفظ له.

وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(13))

إن الوقوف أمام الفواتح والآيات الأولى من سورة القصص هو وقوفٌ أمام "ملحمة المستضعفين" الكبرى في تاريخ البشرية، حيث صاغها القرآن الكريم بإعجاز لغوي وبلاغي وسياقي باهر.

*(طسم): الحروف المقطعة، والأرجح عند النحاة (كالزمخشري والقرطبي) أنها لا مَحل لها من الإعراب إن أُنزلت منزلة حروف الهجاء، أو هي في محل رفع مبتدأ والتقدير: "هذه طسم"، أو خبر لمبتدأ محذوف "هذا المتلو طسم".

يرى ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله أنّ هذه الحروف إعجازٌ بالتحدي؛ أي إن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف التي تنطقون بها، وعجزكم عن الإتيان بمثله هو غاية الإعجاز.

أمّا البقاعي فيربط بين أصوات الحروف ومقاصد السورة؛ فالطاء فيها استعلاء وانطباق (يناسب طغيان فرعون)، والسين فيها همس ورخاوة (تناسب خفاء وتدبير أم موسى وأختها)، والميم فيها جهْر وانفتاح (تناسب ظهور الحق وتمكين المستضعفين).

تفتتح السورة بقرع جرس الانتباه وتنبيه السامع إلى أنّ ما سيُتلى هو كلام معجز خارج عن مألوف لغة البشر، لتهيئة النفوس لتلقي المشاهد الهائلة التي تليها.

*(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) (تِلْكَ): اسم إشارة للبعيد، في محل رفع مبتدأ، و(آيَاتُ) خبره، وهو مضاف، و(الْكِتَابِ) مضاف إليه. (الْمُبِينِ) نعت مجرور.

إشراقة بلاغية: إشارة البعيد (تِلْكَ): يسميها البلاغيون استعارة للبعيد هنا لتعظيم مكانة الآيات وعلو رتبتها وشرفها في النفوس أو (مجاز عقلي بمرتبة التعظيم).

نبه ابن عاشور – رحمه الله إلى أنّ وصف الكتاب بـ (الْمُبِينِ)، وهو : اسم فاعل من أبانَ، يحمل معنيين بلاغيين: أنه بَيّنٌ في نفسه واضح الإعجاز، ومُبِينٌ لغيره من الحقائق والقصص والشرائع.

هذا الربط يقرر أنّ القصة التي ستُسرد الآن ليست أسطورة تاريخية للتسلية، بل هي وحيٌ مستبين، يحمل سنناً كونية واضحة لا لبس فيها.

*(نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، (نَتْلُو): فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة، والفاعل مستتر تقديره (نحن) للتعظيم. (بِالْحَقِّ): جار ومجرور في موضع الحال من الفاعل أو المفعول (أي ملتبساً بالحق). (لِقَوْمٍ) متعلق بـ (نَتْلُو).

إشراقة بلاغية: صيغة المضارع (نَتْلُو): تفيد تجدد التلاوة واستحضار الصورة (تصوير المشهد) كأن السامع يرى الأحداث تقع الآن أمام عينيه.

تنكير النبأ وعطف (مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ): في هذا العطف تقابلٌ حاد بين قمتين: قمة الطهر والنبوة، وقمة الطغيان والربوبية المزيفة.

يركز سيد قطب -رحمه الله - هنا على أن التلاوة (الْحَقِّ) تعني الثبات والواقعية، وليست خيالاً شعبياً. والقصة تُساق تسلية للرسول ﷺ وتثبيتاً للمؤمنين في مكة الذين كانوا يمرون بظروف استضعاف تشبه ظروف بني إسرائيل.

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أي: يصدقن بالقرآن، يلحظ محمد قطب – رحمه الله - هنا ملمحاً نفسياً؛ فالإيمان هو القوة الوحيدة المتهيئة لانتزاع العبرة والانتفاع بالسنن التاريخية، أما الجاحد فلا يرى في التاريخ إلا حوادث عشوائية.

*(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً تعليلاً للنبأ. (عَلَا) فعل ماضٍ، وجملة (يَسْتَضْعِفُ) في محل نصب حال من فاعل (جَعَلَ) أو مفعوله، وجملة (يُذَبِّحُ) بدل من (يَسْتَضْعِفُ) (بدل بيان وتفصيل لصور الاستضعاف).

إشراقة بلاغية: التأكيد بـ (إِنَّ): لبيان خطورة الواقعة وتثبيتها، أمّا لفظ (عَلَا فِي الْأَرْضِ): ففيها الجنوح إلى العلو المطلق، وهو ذمّ شديد لأن العلو المطلق لله وحده.

تنكير (شِيَعًا) وتفصيل (يُذَبِّحُ ... وَيَسْتَحْيِي): تعبير عن سياسة "فرق تسد". واستعمال صيغة المضارع (يذبّح بالتضعيف) يدل على التكثير والوجع المتجدد والمستمر.

يشير ابن القيم – رحمه الله - إلى أنّ "العلو" في الأرض منشأ كل الفساد، وهو منازعة لربوبية الله، ولذلك كانت النتيجة الحتمية له هي تمزيق النسيج الاجتماعي (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) ليأمن ثورتهم.

أمّا سيد قطب – رحمه الله - فيرسم بكلماته الرشيقة مشهد الطغيان الكالح؛ فرعون يملك القوة الغاشمة، ويستبيح الدماء (الرجال والولدان) ويمتهن الكرامة (النساء)، فيبدو في الظاهر مسيطراً تماماً، لكن السياق يمهد لتدخل يد القدرة الإلهية من حيث لا يحتسب الطاغية.

*(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ)

الواو عاطفة (أو للحال)، (نُرِيدُ) فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل مستتر (نحن). المصدر المؤول (أَن نَّمُنَّ) في محل نصب مفعول به لـ (نُرِيدُ). (أَئِمَّةً) مفعول به ثانٍ للفعل (نَجْعَلَهُمْ).

إشراقة بلاغية: صيغة المضارع (وَنُرِيدُ): حكاية حال ماضية، ولكن اختيار المضارع هنا يرفع المشهد فوق الزمان والمكان؛ إنها إرادة مستمرة وقانون إلهي سارٍ في كل العصور.

المقابلة البديعة: بين (عَلَا فِي الْأَرْضِ) في الآية السابقة، و(اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ) في هذه الآية. وبين (يَسْتَضْعِفُ) وبين (نَّمُنَّ) و(أَئِمَّةً).

يلاحظ ابن عاشور – رحمه الله تقديم المجرور (عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) للعناية بهم والتشريف، فالله يتبنى قضيتهم مباشرة بمواجهة الفرعونية.

ويبين سيد قطب – رحمه الله – أنّ هنا تتدخل قدرة الله سبحانه لتضرب على الطاغية الباغي ورحمته سبحانه تكلأ المستضعف الباكي". كلمة (نَّمُنَّ) تفيض بالرحمة والفضل الإلهي الذي يغير موازين القوى المادية في لحظة واحدة.

*(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ).

(وَنُمَكِّنَ) معطوف على (نَّمُنَّ) فهو منصوب مثله. (وَنُرِيَ) معطوف أيضاً. (فِرْعَوْنَ) مفعول أول لـ (نُرِيَ). (مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) مفعول ثانٍ (و"ما" اسم موصول).

إشراقة بلاغية: الإيجاز والتهويل الإلهي: (أَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) الإبهام هنا يفيد التهويل البليغ. ما الذي يحذرونه؟ زوال ملكهم على يد طفل من بني إسرائيل.

ذكر (وَجُنُودَهُمَا): إشارة بلاغية إلى أن الطاغية لا يعلو إلا ببطانته وأدواته (الجنود)، فهم شركاء في الجريمة والمصير.

يربط البقاعي رحمه الله - بين "التمكين" وعاقبة الحذر. لقد قتل فرعون آلاف الأطفال ليأمن، فأراه الله هلاكه من نفس الصنف الذي كان يبيدُه، لتبين غاية العجز البشري أمام قدر الله.

*(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(أَنْ) تفسيرية، لأن الوحي هنا بمعنى الإلهام وفيه معنى القول دون حروفه، أو مصدرية. وجملة (أَرْضِعِيهِ) أمر. الواو عاطفة. الجمل اللاحقة أوامر ونواهٍ ومؤكدات بـ (إنَّ).

إشراقة بلاغية (قمة الإعجاز الإيجازي): قال علماء البلاغة (كابن الأثير والسكاكي): جمعت هذه الآية في إيجازها الإعجازي: أمرين ({أَرْضِعِيهِ}، {فَأَلْقِيهِ})، ونهيين ({لَا تَخَافِي}، {لَا تَحْزَنِي})، وبشارتين ({إِنَّا رَادُّوهُ}، {وَجاعِلُوهُ}).

الطباق النفسي والمفارقة العقلية: الخوف يقتضي الحفظ والضمّ، لكن الأمر الإلهي جاء – غير متوقع - بـ (فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) (البحر/النيل)، فالمأمن العَقلي صار مخوفاً، والمخوف ببركة امتثال أمر الله صار مأمناً!

يقف ابن القيم – رحمه الله - طويلاً عند الطمأنينة الإلهية؛ الفرق بين الخوف (من القادم) والحزن (على الماضي). الله أمّن قلبها من الجهتين.

أمّا سيد قطب – رحمه الله فيعلّق على عمق الإيمان والوحي الإلهي في قلب الأم: "أي قلب أمّ يتلقى مثل هذا الوحي فينفذه لولا أنه هاتف الحق تشرق به النفس فتستسلم له طائعة واثقة؟!".

*(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(فَالْتَقَطَهُ) الفاء عاطفة تفيد التعقيب المباشر. اللام في (لِيَكُونَ) هي لام العاقبة والصيرورة، وليست لام التعليل، لأنهم لم يلتقطوه ليصبح عدواً لهم عامدين، بل التقطوه للمحبة، فكانت عاقبة أمرهم أنه صار عدواً. (وَحَزَنًا) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الحاء وإسكان الزاي، وقرأ الباقون بفتح الحاء والزاي وهو مصدر كالْحُزْنِ،

أي أن عاقبة التقاطهم وتربيتهم للنبي موسى عليه السلام في قصورهم كانت أن أصبح لهم عدواً مبيناً في دعوتهم ودينهم، ومصدراً لـ الحزن والغم والندم على ما نالهم منه ومن قومه من المكروه والهلاك.

إشراقة بلاغية: لام الصيرورة (التهكم بالقدر): تهكمٌ بالتدبير الفرعوني؛ فالعدو الذي يبحثون عنه في البيوت لتذبيحه، قادهم قدر الله ليلتقطوه ويتربى في حجرهم برعايتهم وإنفاقهم!

تذييل الجملة بـ (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ... كَانُوا خَاطِئِينَ): تأكيد بـ "إنّ" واسم الفاعل "خاطئين" (أي عاصين آثمين متجاوزين في كل تدبيرهم).

يشير ابن تيمية – رحمه الله - إلى إحاطة الله ومكره بالظالمين؛ يسوقون حتفهم بظلفهم (بأيديهم)، ويسخرون كل قواهم لحماية من سيكون هلاكهم على يديه.

*(وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(قُرَّتُ عَيْنٍ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هذا الطفل قرة عين". جملة (لَا تَقْتُلُوهُ) نهي. وجملة (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) جملة حالية من "آل فرعون".

إشراقة بلاغية: إضافة (قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ): استعطاف رقيق ولين مفرط في مواجهة الطغيان الصلب.

الالتفات والتهكم في الحقيقة: (عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا)، وجاء التعقيب الرباني الربط الهائل (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)؛ فـ "النفع" انقلب عليهم ضرراً، والولد صار خصماً.

يبرز ابن عاشور – رحمه الله - هنا لطف الله الخفي بإلقاء المحبة على موسى، كما في سورة طه: (وألقيت عليك محبة مني)، هذه المحبة تسللت لقلب امرأة فرعون فصارت خط الدفاع الأول عنه داخل قصر الطاغية نفسه.

*(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(وَأَصْبَحَ) من أخوات كان فعل ماضي ناسخ. (فُؤَادُ) اسمها. (فَارِغًا) خبرها، (إن) هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، وجملة (كَادَتْ) خبرها. (لَتُبْدِي) اللام هي الفارقة بين إن النافية والمخففة، (به) قيل الها في (به) راجعة لموسى، أي: كادت لتبدي به أنه انبها، من شدة وجدها، وقال عكرمة عن ابن عباس: كادت تقول: وابناه. (لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) بالعصمة والصبر والتثبيت، وجواب (لَوْلَا) محذوف دل عليه ما قبله (أي: لولا أن ربطنا لأبدت به).

إشاقة بلاغية: تعبير (فَارِغًا): يسميها البلاغيون: استعارة تمثيلية مكنية لبلوغ الصدمة واللوعة النفسية ذروتها، حتى خلت نفسها من كل شيء في الدنيا إلاّ من ذِكر موسى.

كما يسمون استعارة كذلك قوله تعالى: (رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِها): تشبيه لطيف، كأن القلب من شدة اضطرابه وفزعه وطيرانه يكاد ينفلت ويسقط، فربطه الله برباط التثبيت والسكينة، قال البلاغيون: (وهي استعارة ترشيحية هائلة لبيان مفعول الطمأنينة الإلهية).

يفصل ابن القيم – رحمه الله - بين "الفؤاد" و"القلب" في هذه الآية؛ الفؤاد هو محل الاحتراق والاضطراب (تفرغ من الصبر)، والقلب هو محل الاستقرار والربط الإلهي. الرباط هو الثقة بوعد الله.

أمّا سيد قطب فيصف هذه اللحظة الإنسانية الضعيفة؛ فالقرآن لا يصور أبطاله كأجهزة صماء، بل كبشر يصيبهم الوجع والضعف، لكن السند والمدد يأتي من السماء حين تعجز الطاقة البشرية.

*(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، (قُصِّيهِ) فعل أمر والهاء مفعول به (من قصّ الأثر تتبعه)، (عَن جُنُبٍ) جار ومجرور في موضع الحال (أي عن بعد وتراخٍ، أو من جانب الطريق).

إشراقة بلاغية: لفظة (قُصِّيهِ): تعكس ذكاء الأم والحذر الفطري في اتخاذ الأسباب البشرية مع التوكل على الله وربط الله على قلبها.

أمّا التعبير بـ (فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ) فهو صورة بلاغية حركية؛ تنظر بطرف عينها ومن بعيد متظاهرة بعدم الاهتمام حتى لا تثير الشكوك حَوْلها، كأعمال الاستخبارات المعاصرة لحماية الهدف.

كما يتأمل الأستاذ محمد قطب – رحمه الله - هنا في تكامل الأسباب مع القدر؛ الله وعد بالرد والتأمين، ومع ذلك أمرت الأم ابنتها بالحركة والتتبع. الإيمان لا يلغي الأسباب، بل يفعّلها بذكاء وهدوء.

*(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ).

(وَحَرَّمْنَا) التحريم هنا تحريم كوني قدري (منع واشتهاء طبيعي) وليس تحريماً شرعياً. (مِن قَبْلُ) ظرف مبني على الضم لقطعه عن الإضافة. جملة (وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) جملة اسمية حالية أو صفة لـ (أَهْلِ بَيْتٍ).

إشراقة بلاغية: التحريم الكوني الجاذب (وَحَرَّمْنَا): جعل غريزة الجوع والرفض في فم الطفل الرضيع سلاحاً قاطعاً يعجز أمامه جبروت قصر فرعون. كلما أتوه بمرضع بكى ورفض، فياله من تدبير بليغ!

ذكاء العرض (هَلْ أَدُلُّكُمْ): الاستفهام للعرض والتلطف؛ لم تقل "أنا أعرف أمه"، بل عممت بذكاء (هْلِ بَيْتٍ)، وزادت في الترغيب والتأمين النفسي لهم بقولها: (وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) ليطمئن آل فرعون.

يتأمل ابن تيمية رحمه الله - "الأسباب التي يقودها الله لعباده المؤمنين، وأنها قد تأتي من وجوه يظنها الخلق كرباً ومحنة، فرفض الرضيع للمراضع كان كرباً عابراً وقلقاً في القصر، ولكنه كان المفتاح الوحيد لعودته لحضن أمه".

*(فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

الفاء عاطفة تفيد السرعة وتحقيق الغاية المباشرة. (رَدَدْنَاهُ) فعل وفاعل ومفعول به. (كَيْ) حرف مصدري ونصب، و(قَرَّ) فعل مضارع منصوب بها. (وَلِتَعْلَمَ) الواو عاطفة، اللام للتعليل وفعل مضارع منصوب بأن مضمرة. (أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) المصدر المؤول سد مسد مفعولي تعلم.

إشراقة بلاغية وسياق الخاتمة للمشهد الأول: المقابلة البديعة التناظرية: تعود الألفاظ لتقابل بين قوله: (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيۖ إِنَّا رَادُّوهُ)، وهنا تحقق الوعد تماماً بـ (فَرَدَدْنَاهُ) و (كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ). هذا التناظر اللفظي هو قمة البناء المعماري البلاغي في القصة القرآنية.

الالتفات إلى الغاية الأسمى (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ): لم يكن الرد لمجرد عاطفة الأمومة الشريفة (تقر عينها)، بل لترسيخ قضية العقيدة الكبرى (العلم بصدق الوعد الإلهي).

يختم سيد قطب – رحمه الله - هذا المشهد الحاشد بالدموع والوجل والانتصار بنبضة إيمانية عميقة: "لقد ردّه الله إليها ولكن في هذه المرة ليس كطفل مطارد خائف، بل كطفل ملكي تحرسه حراب فرعون التي كانت تبحث عنه لتقتله! إنها رعاية الله حين تتولى المستضعفين".

أمّا ابن عاشور – رحمه الله – فيتأمل قوله تعالى: (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) تذييل يعيب على المشركين والظالمين جهلهم بالسنن الإلهية الخفية؛ يظنون أنهم يملكون مقاليد الأمور بجيوشهم وقوتهم، بينما هم عاجزون عن التحكم في فم طفل رضيع.

الخلاصة: هذا النص الباهر يؤسس في وعي الأمة "فقه الاستضعاف والتمكين"؛ فالباطل مهما علا وتفرعن ومزق الأمة طوائف وشيعاً، ومهما بلغت قسوته، فإن إرادة الله فوقه، وأسباب النصر والتمكين قد تخرج من أوهن الأماكن (تابوت في بحر، رفض طفل للرضاعة، كلمة امرأة صالحة في قصر طاغية).

*(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(21))

هذه الآيات الكريمة من سورة القصص تغطي منعطفاً وتاريخياً حاسماً في حياة كليم الله موسى عليه السلام؛ حيث تنقله من حياة القصور والنشأة المترفة في كنف فرعون، إلى مدرسة التمحيص الإلهي، والابتلاء، والتربية بالصدمة والمشقة لتهيئة نفسه للرسالة الكبرى.

التمكين والتهيئة الربانية: *(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

يرى الإمام البقاعي في (نظم الدرر) أنّ هذه الآية هي واسطة العقد بين مرحلة الحضانة والرعاية، ومرحلة التكليف والمواجهة، فبعد أن استقرت أواصر أمنه في طفولته، انتقل إلى طور الرجولة الكاملة لتبدأ التوطئة لرسالته.

(بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ): "الأشد" هو كمال القوة البدنية (الفتوة والشباب بين الـ30 والـ40)، و"استوى" تعني الاعتدال التام للجسد والعقل، واستقرار المزاج النفسي. الواو العاطفة تفيد الجمع والترتيب الكمالي؛ فالقوة البدنية لا تكفي حتى يستوي العقل والروح.

وبالمقارنة بين هذه الآية، وبين قوله تعالى في حق يوسف عليه السلام: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [يوسف:22] يؤكد علماء البيان أن زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، فموسى عليه السلام تميز بوصف كمال البنية، حيث كان رجلاً طويلاً مكتمل الأعضاء، فاحتاج إلى ذكر الاستواء الذي يمثل قمة تمام الخِلقة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيتُ ليلَةَ أُسْرِيَ بي موسى رجلًا آدمَ طِوالًا جَعْدًا؛ كأنَّه مِنْ رجالِ شَنُوءَةٍ، ورأيتُ

عيسى رجلًا مربوعَ الخلقِ إلى الحمرةِ والبياضِ، سَبْطِ الرأسِ، ورأيتُ مالِكًا خازِنَ النارِ والدجالَ[1].

اقتضى السياق هنا حيازة القوة البدنية تهيئة للأحداث التي ستتلوا؛ لأن موسى عليه السلام دخل المدينة على حين غفلة ووكز رجلاً فقضى عليه، ثم خرج مهاجراً يقطع الصحاري الطولة خائفاً يترقب، ورفع وحده الصخرة الثقيلة عن البئر ليسقي للفتاتين، فناسب ذلك وصفه بالاستواء الذي يعني اكتمال البنية واستحكام القوة البدنية وحسن النضج.

(آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا): نكّر "حكماً" و"علماً" للتعظيم والشيوع. والحكم هنا هو الحكمة وفصل الخطاب والقدرة على التدبير قبل النبوة، والعلم هو الفقه في الدين والحقائق والشرائع الموروثة عن آبائه. وقدم "الحكم" على "العلم" لأن قيادة النفوس وضبط الاندفاع تطلب الحكمة أولاً، وهي ثمرة نضج العقل.

(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ): جملة تذييلية مؤكدة بـ "كذلك" (كاف التشبيه واسم الإشارة البعيد للتعظيم). يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ هذا تذييل يربط بين نوال العلم والحكم وبين صفة "الإحسان". والإحسان هنا هو مراقبة الله في القول والعمل.

يقف سيد قطب – رحمه الله (في ظلال القرآن) عند هذه الآية ليوضح أنّ الله لا يعطي حكمته وعلمه جزافاً، بل هي مكافأة للإحسان. وموسى نشأ في قصر فرعون لكنه حفظ قلبه من لوثة القصر وظل موصولاً بالحق، فاستحق هذه الهبة الربانية التي تحميه في المنعطفات القادمة.

ثم تأتي لحظة الامتحان والصدمة الأولى: *(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)

إشراقة بلاغة أسلوبية سياقية: (عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ): قال البلاغيون: هنا استعارة الحرف "على" للاستعلاء المجازي، كأن الغفلة كانت مظلة تظل المدينة (وقت الظهيرة أو القيلولة)، مما يبرز التسلل الخفي لموسى الذي كان يتحاشى الظهور العلني تجنباً للاحتكاك بملأ فرعون.

(فوجد فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ): الفعل المضارع "يقتتلان" يجسد المشهد ويحوله إلى صورة حركية حية أمام القارئ.

---

1 - أخرجه البخاري (3239) واللفظ له، ومسلم(165)

(هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ): استخدام اسم الإشارة للقريب "هذا" يبرز الانقسام المجتمعي الحاد في مصر الفرعونية (إسرائيلي مستضعف، وقبطي مسيطر).

(فَاسْتَغَاثَهُ): السين والتاء للطلب، والاستغاثة طلب الغوث في شدة مأزق، مما يبرز الضعف الشديد لسبط بني إسرائيل.

(فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ): "الوكز" هو الضرب بجمع الكف (بقمع اليد) أو باليد مقبوضة، والفاء هنا هي فاء التعقيب والسرعة، وتدل على الاندفاع السريع النامي عن النخوة والشهامة، مع القوة البدنية الهائلة لموسى؛ حيث كفت ضربة واحدة بجمع كفه لإنهاء حياة الرجل: (فَقَضَىٰ عَلَيْهِ).

(قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ): استدراك فوري من موسى يعبر عن وعيه الإيماني العميق. يرى ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - أنّ الأنبياء معصومون إقرار على الخطأ أو القرار عليه، لذا تنبه موسى فوراً إلى أنّ الغضب والاندفاع كان مدخلاً من مداخل الشيطان، فوصف الفعل بأنه "عمل الشيطان" المنعوت بالإضلال والعداوة الواضحة (عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ).

هنا يأتي فقه الاستغفار والانكسار بين يدي الله، وسرعة التوبة: *(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

يسلط الإمام ابن القيم – رحمه الله – هنا الضوء على جماليات التوسل بـ "الاعتراف بالذنب":

بدأ بـ (رَبِّ)، نداء المربّي والمالك بغير ياء النداء لقرب الإجابة، ثم اعتراف واعتذار: (إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) مؤكداً بـ (إنّ) لتأكيد توبته وتذلل موسى عليه السلام وانكساره، ثم الطلب المباشر: (فَاغْفِرْ لِي).

فكانت السرعة من الله سبحانه في الاستجابة: (فَغَفَرَ لَهُ): الفاء تعقيبية سريعة جداً. لم يمر وقت حتى جاء الغفران الإلهي، تعبيراً عن صدق التوبة وحب الله لعبده موسى.

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ): تذييل مؤكد بـ (إنّ) وضمير الفصل (هو)، وأسماء المبالغة (الغفور، الرحيم) لتقوية الطمأنينة في قلب التائب.

وهذه المسارعة في مرضات الأنبياء حكتها عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت: كنتُ أغارُ على اللَّاتي وَهبنَ أنفسَهنَّ للنبي

فأقولُ: أوَ تَهَبُ الحرَّةُ نفسَها؟ ! فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ قلتُ: واللَّهِ! ما أرى ربَّكَ إلَّا يسارعُ لَكَ في هواكَ [1].

وما ذلك إلاّ أنهم كُلفوا مهمات ثقال تعجز عنها الجبال الرواسي صلوات ربي وسلامه عليهم.

عهد الامتناع عن نصرة الظالمين: *(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ)

التفسير البلاغي واللساني: (بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ): الباء هنا سببية أو قسمية. أي: بسبب نعمتك عليّ بالمغفرة والقوة والجاه، أو "أقسم بنعمتك عليّ".

(فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ): "فلن" أداة نفي للمستقبل تفيد التأكيد المطلق. و"الظهير" هو المعين والمساند. والمجرمون هنا هم الطغاة الظلمة فرعون وملئه، وجنودهم أو المعتدون عامة.

يقرر ابن تيمية – رحمه الله - أنّ هذه الآية قاعدة شرعية كبرى في تحريم "إعانة الظلمة" بأي شكل من الأشكال. ويرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ شكر النعمة لا يكون باللسان فقط، بل بالعمل؛ وموسى عليه السلام جعل شكر مغفرة الله له عهداً يقطعه على نفسه بألّا يضع قوته وجاهه في خدمة أي مجرم أو معتدٍ بعد اليوم.

عن أوس بن شراحيل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من مشى معَ ظالِمٍ ليُقَوِّيَهُ وهوَ يعلمُ أنَّهُ ظالِمٌ، فقد خرجَ مِنَ الإسلامِ[2].

على أنّ العلماء تأولوا هذا الحديث على فرض ثبوته بما يتفق مع عقيدة أهل السنة والجماعة قاطبة من عدم تكفير أصحاب الذنوب والمعاصي، ولو كانت كبائر ما لم يستحلوها.

قال القاري في المرقاة: فقد خرج من الإسلام أي من كمال الإيمان أو من حقيقة الإسلام المقتضي أن يسلم المسلمون من لسانه ويده.

---

1 - أخرجه البخاري (4788)، ومسلم (1464)، والنسائي (3199) واللفظ له، وابن ماجه (2000)، وأحمد(25251)

2 - أخرجه ابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (2252)، والطبراني (227/1) (622)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (7675) واللفظ له، قال في الدرر اللسنية: صحيح لا شك فيه. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وفيه عياش بن مؤنس، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله وثقوا، وفي يعضهم كلام .انتهى .وقال الألباني في الضعيفة وضعيف الترغيب :ضعيف جدا.

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ)، قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: (لَا، مَا صَلَّوْا) [1].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ:

(أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ)" قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟. قَالَ: (أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي [2].

وليس معنى هذا التقليل من شأن ظلم الناس فإن عاقبته وخيمة وهو ظلمات يوم القيامة، والأحاديث في ذم الظلم والترهيب منه وبيان الوعيد عليه كثيرة جدا ليس هذا موضع ذكرها، والمعين على الظلم مشارك للظالم في معصيته وهو متعرض مثله للوعيد الشديد والعقوبة الأليمة .[3]..

*(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ)

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}: يقول سيد قطب – رحمه الله - يرسم القرآن حالة من القلق والتوتر النفسي والجسدي البالغين. "يترقب" تصوّر التفات الرأس وحركة العينين خوفاً من الرصد والملاحقة.

(فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ): "إذا" الفجائية تنقل المشهد فجأة من الترقب الصامت إلى الصدمة والمفاجأة الحركية. والسين والتاء في "يستصرخه" تدل على الصراخ العالي المصحوب بطلب النجدة بلهفة وعنف.

(قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ): غضب موسى الرسالي يتجلى هنا؛ فقد أدرك أن هذا المستضعَف متهور ومثير للمشاكل والفتن، فوصفه بـ "الغاوي" (الضال الذي يجر المشاكل لغيره) بأسلوب توكيد صارخ (إنّ + لام المزحلقة: لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ).

*(فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ).

---

1 - أخرجه مسلم.(1854) .

2 - أخرجه أحمد في المسند (14441)، وغيره، وقال الألباني في "ظلال الجنة" (352/2) :"إسناده جيد

3 - انظر موقع إسلام ويب.

(فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ): "أنْ" هنا زائدة للتوكيد والربط الزمني السريع، لتصوير اقتراب موسى الفعلي للبطش بالقبطي حمايةً لصاحبه رغم غضبه منه (لأن القبطي عدو مشترك: (عَدُوٌّ لَّهُمَا).

(قَالَ يَا مُوسَىٰ...): من القائل هنا؟ يرجح علماء التفسير (كالبغوي وابن عاشور) وجهين:

القبطي: هو الذي قال ذلك حين رأى الغضب في عيني موسى، وربط بين اختفاء زميله القبطي بالأمس وهيئة موسى اليوم.

الإسرائيلي: خاف من ثورة غضب موسى عليه (حين قال له: إنك لغوي مبين) وظن أن موسى يريد البطش به هو، فأفشى سر موسى دون قصد ليحمي نفسه. وهذا الوجه يحمل مرارة خذلان المستضعف لمن نصره بالأمس.

إشراقة بلاغية اسلوبية والنقد الاجتماعي: (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ): الاستفهام هنا للتقريع والإنكار والتهديد بكشف السر.

(إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا...): حصر بـ (إنْ النافية وإلا الملغاة)، والـ "جبار" هو القاهر العاتي الذي يقتل ويعاقب بمقتضى الغضب والهوى لا بمقتضى الحق والعدل. وهي تهمة قاسية هزت كيان موسى النفسي، فهو مصلح يكره الجبروت الفرعوني، فإذا به يُتهم بما فر منه!

ناصح القصر.. ومؤامرة "الملأ": *(وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

(رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ): تنكير "رجل" للتعظيم والاحتفاء به، أو لإخفاء الهوية إمعاناً في السرية والخطورة. وقدومه "من أقصى المدينة" يدل على اتساع رقعة الخطر وسعة المدينة، ومع ذلك أسرع وجاء بصفة السعي (العدو والهرولة) إشفاقاً وحباً لموسى.

في سورة يس قال سبحانه: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) [يس:20]، فقدم الجار والمجرور هناك للاهتمام بالمكان والموطن، بينما هنا قدم "رجل" لأن سياق نصرة موسى يتطلب إبراز شجاعة الفاعل ونصرته الفردية في بيئة فرعون).

(إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ): "الملأ" هم كبار رجال الدولة وأعيان القصر الفرعوني. و"يأتمرون" أي يتشاورون ويتبادلون الآراء والمؤامرات (صيغة افتعال من الأمر، كأن بعضهم يأمر بعضاً) للتخلص منه.

(فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ): الفاء الفصيحة المرتبة على الخبر السابق. وأكد نصحه بـ (إنّ) وبالجار والمجرور (لك) دلالة على إخلاصه التام وخلو غرضه من أي سوء.

فكان الخروج من دائرة الأمان البشري إلى الأمان الرباني: *(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ): تكرار لفظ "خائفاً يترقب" ليس حشواً بلاغياً، بل لتأكيد مرافقة هذه الحالة النفسية له طوال رحلة خروجه من مصر. لقد تجرد موسى فجأة من جاهه وقوته وعائلته الملكية بالتبني، وأصبح طريداً حافي القدمين وحيداً لا زاد معه ولا ماء.

لكن معه ربه سبحانه: (قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ): الدعاء هنا هو الملاذ والملجأ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يَرحَمُ اللهُ لوطًا، لقد كان يَأوي إلى رُكنٍ شَديد [1]. وذلك تعليقا على قوله تعالى على لسان لوط – عليه السلام - لقومه: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ) [هود:80].

لجأ موسى -عليه السلام - إلى الله (قال رَبِّ) تعبيراً عن حاجته للرعاية والتربية والكلأ منه سبحانه.

ووصف قوم فرعون بـ (الظَّالِمِينَ) ليبرر استحقاقه للنجاة؛ فهو فرّ من بيئة ظالمة يأتمر كبارها على قتل النفس بغير حق.

خلاصة: هذه السلسلة من الأحداث السريعة والحرجة لم تكن محض صدفة، بل كانت أقداراً مصنّعة وموجّهة بعناية إلهية فائقة لقوله تعالى في سورة طه: (وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) وقوله تعالى: (ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ)*.

لقد كان خروج موسى من مصر وتجرده من الحماية المادية هو بداية احتمائه، والتجائه حقيقة بكنف الله الشامل وانقطاعه إليه سبحانه، ليرحل إلى مدين ليتعلم الصبر والخدمة والهدوء تمهيداً لبداية رحلة التكليف وحمل الرسالة ومجابهة أكبر طاغية في التاريخ.

*(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن

1 - أخرجه البخاري (4694)، ومسلم(151)

تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(28))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة القصص هي واحدة من أروع اللوحات القرآنية المليئة بالحركة، والمشاعر، والقيم الإنسانية والرسالية. إنها قصة خروج موسى -عليه السلام- خائفاً يترقب، ليدخل في مرحلة "التأهيل الإلهي" في مدين.

التوجه والالتجاء: *(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

تبدأ الآية بـ (ولمّا) الرابطة التي تفيد المفاجأة والتعقيب بعد خروجه من مصر. لفظة (تَوَجَّهَ) توحي بالعزم؛ فلم يعد هائماً على وجهه، بل جعل وجهته (تِلْقَاءَ مَدْيَنَ)، وهي جهة تلقائية اختارها الله له ليمشي في أرض لا سلطان لفرعون عليها.

استخدم موسى أسلوب الرجاء (عَسَىٰ)، وأضاف الرب إلى نفسه (رَبِّي)، وهي إضافة تشي بالقرب واستدرار العطف والرحمة في موطن الغربة والوحشة.

إشراقة بلاغية: (سَوَاءَ السَّبِيلِ) يقول البلاغيون: هنا استعارة للطريق الوسط المعتدل الذي لا ضلال فيه ولا وعورة، وتعبير عن حاجة الهارب الخائف إلى الأمن الحسي (المرشد في الطريق) والأمن المعنوي (الهداية الإلهية).

يلمح ابن القيم – رحمه الله - هنا منزلة "التوكل" و"الافتقار"؛ فموسى خرج بلا زاد ولا معرفة بالطريق، فكان زاده حسن الظن بربه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو أول ابتلاء منن الله عز وجل لموسى عليه السلام.

ويشير سيد قطب – رحمه الله - إلى أن النّفس المؤمنة حين تنفض عنها غبار الخوف من الطغاة، تتجه مباشرة إلى البوصلة الحقيقية؛ فالطريق إلى مدين هو أول خطوة في طريق التربية القيادية لموسى.

مشهد الماء والمروءة: *(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(وَرَدَ) تفيد الوصول إلى منبع الماء بعد ظمأ وسفر طويل. ولفظة (أُمَّةً) تدل على الكثرة والازدحام. و*(تَذُودَانِ)* أي تمنعان وتكفان غنمهما عن الماء؛ والفعل المضارع يفيد استمرار المعاناة والحركة.

إشراقة بلاغية: المقابلة البصرية هنا مذهلة: (أمة يسقون) في مقابل (امرأتين تذودان).

فكان سؤال موسى (مَا خَطْبُكُمَا) اختصار بليغ؛ لم يقل "ما بكما؟" أو "ما قصتكن؟"، فالخطب يُقال للأمر الشديد المستغرب. إنه سؤال الشهامة المستنكرة للظلم الإنساني.

إجابة المرأتين جاءت قمة في الاختصار والأدب كذلك: (لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)، بيان للسبب والواقع، (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)، اعتذار غير مباشر عن خروجهما للعمل، ورفع للامتراء والشك.

يقول ابن عاشور- رحمه الله -: تقديم (مِن دُونِهِمُ) يفيد الإقصاء، أي أن المرأتين كانتا في مكان متأخر وبعيد عن الرجال، وهو أصل في العفة والتحشم.

ويذكر البغوي أن هذه اللفتة من موسى تدل على طبع الأنبياء في نجدة الملهوف وإغاثة المستضعف، رغم أنه هو نفسه كان طريداً جائعاً خائفاً.

ثم كان العطاء الصامت والافتقار العظيم: *(فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

الروابط والسرعة البلاغية: الفاء في (فَسَقَىٰ) تفيد التعقيب المباشر؛ بلا تردد، ولا مَنّ، ولا طلب أجر.

الأسلوب والحركة: (ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ) حركة بدنية ونفسية رائعة. تولى بكليته، لم يقف ليتودد، ولم ينتظر كلمة شكر، بل انسحب متواضعاً ليجلس في الظل حرساً لعفته وعفتهما.

ثم كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم: (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ).

استعمل الكناية والتعريض بأدب جم.

تنكير (خَيْرٍ) للعموم؛ أيّ خير، سواء كان طعاماً، أو مأوى، أو أمناً، كما أنّ تقديم الجار والمجرور (لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ) على خبر إنّ (فَقِيرٌ) لبيان شدة التعلق بالعطاء الإلهي وحده، وقدم الشكر والاعتراف بنعم الله عليه، وتوسل بها لعرض حالته اللحظية.

يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ انتقال موسى إلى الظل هو انتقال من ظل الخلق الشحيح إلى ظل الخالق المتسع.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - تعليقاً على هذه الآية: "العبد دائماً مفتقر إلى الله من حيث هو معبوده ومستعانه... وموسى عليه السلام لم يسأل الخلق، بل سأل ربه متوسلاً إليه بفقره وحاجته، وهذا هو حقيقة العبودية".

سرعة الاستجابة مرة أخرى وأدب المشي والجزاء: *(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

الجمال اللساني والبياني: (تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ): اللجار والمجرور (على استحياء) في محل نصب حال. وتنكير "استحياء" للتعظيم. كأن الاستحياء ظرف يحيط بها، أو بساط تمشي عليه، فهو ليس عرضاً طارئاً بل سجية وخُلق راسخ.

الأدب في الخطاب: (إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ)، وعللت الدعوة فوراً بنبل: (لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)؛ صيانة لنفسها ونفسه من أي ريبة أو توجس.

السياق والقصص: (قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ) فيه جناس اشتقاقي يوحي بالتفصيل والفضفضة بعد كبت طويل. فجاء الجواب بلسماً مهدئاً: (لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ)، وصيغة الماضي في "نجوت" تفيد التحقق واليقين.

يقف محمد قطب – رحمه الله - عند هذه الآية في فقه الأخلاق، مبيناً كيف يعرض القرآن "جمال العفة الفطري" في حركة المرأة وكلامها دون تكلف.

ويشير سيد قطب – رحمه الله - إلى الأثر النفسي لكلمة الشيخ الكبير لموسى: إنها المرة الأولى منذ خروجه من مصر التي يسمع فيها كلمة أمان (لَا تَخَفْ)، فكانت هذه الكلمة هي المأوى الأول قبل الطعام والشراب.

الفراسة والتقييم المؤسسي: *(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

التحليل الأسلوبي والبلاغي: جملة (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) تجري مجرى الحكمة والقاعدة الكلية (تذييل بالدليل). بدأت بـ (إنّ) المؤكدة لتدل على يقينها وفراستها.

لقد جمعت الفتاة في إشارتها معايير العمل الناجح في كلمتين: (الْقَوِيُّ)، الكفاءة المادية والقدرة البدنية، و*(الْأَمِينُ)* الوازع الأخلاقي والنزاهة.

يقول ابن القيم – رحمه الله -: "قيل للفتاتين: بمَ عرفتِ قوته وأمانته؟ فقالت: أما قوته فإنه رفع حجراً عن بئر لا يرفعه إلا عصبة من الرجال، وأما أمانته فقال لي: امشي خلفي وصفي لي الطريق". هذه الفراسة ناتجة عن طهر المحتد.

ويشير ابن عاشور – رحمه الله - إلى أن صيغة الحصر في جملتها تدل على ذكاء حاد في الإقناع؛ فهي لم تمدحه مباشرة حياءً من أبيها، بل ذكرت معياراً عاماً ينطبق عليه تمام الانطباق.

معاهدة الزواج والرفق: *(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

البلاغة والخطاب: عرض الوالد النكاح على الرجل الصالح سُنّة إسلامية بليغة. حدد العقد بوضوح: (عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ)، جعل المهر عملاً ورعاية غنم، تكريماً لموسى الذي لا يملك مالاً.

استخدام لفظ (حِجَجٍ) عوضاً عن "سنوات"؛ لأن الحج مظهر البركة والعبادة والزمن المرتبط بالنسك، وتلطيفاً لسنوات المغترب العجاف.

الرفق الإداري والأسري: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ) قاعدة تربوية في المعاملة. ثم التبرؤ من الحول والقوة وتفويض الأمر للمشيئة: (سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

يذكر البقاعي – رحمه الله - تناسب هذه الآية مع التي قبلها؛ فلما ذُكرت الأمانة والقوة، قابلها الشيخ بالرفق والصلاح والتسهيل، ليبرهن أنه كفءٌ لأن يأتمن هذا القوي الأمين.

ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على جعل العمل مهراً، بأنه تشريع يرفع من قيمة العمل اليدوي والرعوي، ويؤصل لمبدأ التيسير في النكاح صيانة للمجتمع.

ثم كان الحسم وتوقيع العقد والتوثيق الإلهي: *(قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: شهيد فيما بيني وبينك، وقيل حفيظ.

(ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ) اسم الإشارة "ذلك" يفيد الحسم والعهد الثابت. واستخدام لفظ (عُدْوَانَ) لنفي أي مغبة أو لوم أو إلزام بزيادة الأجل (العشر سنوات) إلاّ عن طيب خاطر.

البيان والختام: (وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)؛ هذا هو التوثيق الأعلى؛ حيث لم يكن هناك ورق أو كتبة في الصحراء، جعلا الله حفيظاً وشهيداً وموئلاً للعهد. وهو ختام يتناسب تماماً مع الالتجاء الأول لموسى في بداية القصة (عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي).

الخلاصة: يقول ابن عاشور – رحمه الله -: في قوله (أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ) دليل على شهامة موسى وعزة نفسه؛ فهو يضع النِّقاط على الحروف في العقد مع احتفاظه بحريته وإرادته، وقد دلت السنة (حديث ابن عباس) أن موسى قضى أتم الأجلين وأطيبهما (أي العشر سنين)، لأن الأنبياء لا يفعلون إلا الأكمل.

عن سعيد بن جبير – رحمه الله – قال: سَأَلَني يَهوديٌّ مِن أهلِ الحيرةِ: أيَّ الأجَلَينِ قَضى موسى؟ قُلتُ: لا أدري، حتَّى أقدَمَ على حَبرِ العَرَبِ فأسألَه، فقدِمتُ، فسَألتُ ابنَ عَبَّاسٍ، فقال: قَضى أكثَرَهما وأطيَبَهما؛ إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا قال فعَلَ .[1].

ويختم سيد قطب – رحمه الله - بالقول: هكذا استقر الطريد الخائف، وصار مأجوراً وصهراً لشيخ كريم، ليمضي عشر سنوات كاملة في هدوء الصحراء الساحر، بعيداً عن صخب القصور وضجيجها، لتتم صناعته على عين الله، متهجداً متأملاً، استعداداً لليوم العظيم.. يوم الوادي المقدس طوى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما بعثَ اللَّهُ نبيًّا إلَّا راعيَ غنَمٍ، قالَ لَهُ أصحابُهُ: وأنتَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: وأَنا كُنتُ أرعاها لأَهْلِ مَكَّةَ بالقَراريط قالَ سُوَيْدٌ: يعني كلَّ شاةٍ بقيراطٍ [2].

*(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ(35))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة القصص هي واحدة من أعظم المنعطفات التاريخية والروحية في مسيرة البشرية؛ لحظة التحول من "موسى الفارّ الخائف المستأجر" إلى "موسى الرسول الكليم المصطفى".

يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ السورة مسوقة لتثبيت النبي ﷺ والقلة المؤمنة في مكة عبر استعراض "عاقبة المستضعفين". كما يشير سيد قطب - رحمه الله – (في ظلال القرآن) إلى أنّ السياق هنا ينبض بالحركة؛ فالأحداث تنتقل فجأة من هدوء الحياة الرعوية في مدين (عشر سنين) إلى حركة سريعة خاطفة ليلة اللقاء بالوحي، ليتناسب الإيقاع مع جلال التكليف وصدمة التحول.

1 - أخرجه البخاري (2684من أفراد البخاري على مسلم.
2 - أخرجه البخاري (2262)، وابن ماجه (2149) واللفظ له.

*(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

(قَضَى مُوسَى الأَجَلَ): يفيد اختيار أتم الأجلين (العشر سنين) كما في الأثر، وفي هذا إشارة تربوية التقطها ابن القيم – رحمه الله - بأنّ الأنبياء لا يبخسون الوفاء بالعهود، وأنّ الخدمة الشاقة والرعي كانت فترة إعداد وصقل روحي وتواضع للنفس قبل حمل الرسالة.

(وَسَارَ بِأَهْلِهِ): السير ليلاً في بيئة صحراوية مجهولة وباردة مع زوجته وأولاده يثير في النفس وحشة وقلقًا طبيعيًا.

(آنَسَ): في علم الدلالة، "الإيناس" هو إدراك الشيء بيقين وسكون وطمأنينة بعد وحشة. لم يقل "رأى"، لأن الرؤية قد تكون عابرة، أما "الإيناس" فيعبر عن تعلق قلبي ونفسي بنور وسط الظلام.

ومما جاء في الإيناس قول الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس . . . إلا اليعافير وإلاّ العيس

حيث يصف أرضاً بلغت من القفر والوحشة حداً لا تكاد تجد فيه عيناً تبصرها ولا نفساً تأنس إليها. ولم يستثنِ من هذه الوحشة إلا نوعين من الكائنات:

إلاّ حيوان وحشي (اليعافير): وهو ولد الضبي أو بقر الوحش، وهي تنفر من البشر ولا تعيش إلا في أقصى القفار وأكثرها خلوًا، ووجودها دليل على خلو المكان تماماً من الإنس.

(وإلاّ العيس): وهي ناقته التي يركبها وصويحباتها، وهي الكائن "الأليف" الوحيد الذي يرافقه في هذه الرحلة المجهولة.

أمّا موسى فكانت مفاجأته عظيمة وكان أنسه بالله نعم المولى ونعم النصير: (قال لأهله امْكُثُوا): خطاب استعلائي فيه معنى الرعاية والرجولة وحماية الأهل، فهو يأمرهم بالبقاء في مكانهم لئلا يعرضهم للخطر.

إنّي آنَسْتُ ناراً): أكد الإيناس لعائلته ليسوغ لهم ذهابه الفردي ويهدئ من روعهم؛ وكأنه يقول: "الرؤية محققة وليست وهمًا".

(لَّعَلِّي آتِيكُم منها بخبر): استخدام "لعل" التي تفيد الرجاء والترجي يدل على تواضعه وعدم قطعه بظروف الطريق والغيبيات، وهو أدب نبوي رفيع.

التقسيم البليغ (بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ): جمع بين الحاجتين البشريتين اللحظيتين في تلك الليلة: الخبر (للحاجة المعنوية - معرفة الطريق بعد التيه)، والجذوة (للحاجة المادية - الدفء والاصطلاء.

*(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

إشراقة بلاغية: تعدد النعوت والمحددات المكانية: (شَاطِئِ الْوَادِ)، (الْأَيْمَنِ)، (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)، (مِنَ الشَّجَرَةِ). هذا التراكم البصري والمكاني في غاية الإعجاز؛ فهو يرسم "لوحة جغرافية روحية" تحدد بدقة متناهية مسرح أقدس لقاء على الأرض، لتأكيد واقعية الحدث وحسيته ونفي أي شبهة وهم أو منام.

(نُودِيَ): بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله هنا في البداية، لتشويق السامع وإثارة الهيبة والوجل في قلبه، ثم يأتي الكشف المزلزل بعد ذلك.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ اللهِ – صلَّى اللهُ عليه وسلَّم – بخمسِ كلماتٍ، قال: إنَّ اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، ولكن يخفضُ القسطَ ويرفعُه، يُرفعُ إليه عملُ اللَّيلِ قبل عملِ النَّهارِ، وعملُ النَّهارِ قبلَ عملِ اللَّيلِ، حجابُه النُّورُ، لو كشفها لأحرقت سبُحاتُ وجهِه ما انتهَى إليه بصرُه من خلقِه[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وَذَكَرَ مِنْ تَفْسِيرِ الوالبي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ {أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ} يَقُولُ: قُدِّسَ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) بُورِكَتْ النَّارُ. كَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَفِي السُّورَةِ الْأُخْرَى: ذَكَرَ أَنَّهُ نَادَاهُ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ، وَقَوْلُهُ (مِنَ الشَّجَرَةِ) هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ (مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ)، فَالشَّجَرَةُ كَانَتْ فِيهِ. وَقَالَ الله أَيْضًا: (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ)، وَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ، فَالنِّدَاءُ كَانَ مِنْ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ مِنْ الطُّورِ وَمِنْ الْوَادِي، فَإِنَّ شَاطِئَ الْوَادِي جَانِبُهُ، وَقَالَ تعالى: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ) أَيْ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَجَانِبِ الْمَكَانِ الْغَرْبِيِّ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَانِبَ الْأَيْمَنَ هُوَ الْغَرْبِيُّ لَا الشَّرْقِيُّ، فَذَكَرَ أَنَّ النِّدَاءَ كَانَ مِنْ مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ الْوَادِي الْمُقَدَّسُ طُوًى، مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ، مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ مِنْ الشَّجَرَةِ. وَذَكَرَ أَنَّهُ قَرَّبَهُ نَجِيًّا فَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ وَذَلِكَ الْمُنَادِي لَهُ وَالْمُنَاجِي لَهُ هُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا غَيْرُهُ وَنِدَاؤُهُ وَمُنَاجَاتُهُ قَائِمَةٌ بِهِ لَيْسَ ذَلِكَ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ: إنَّ اللَّهَ لَا يَقُومُ بِهِ كَلَامٌ.

وقال رحمه الله: ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ؛ ثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ؛ عَنْ أَبِيهِ عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ أَنَّ عِكْرِمَةَ حَدَّثَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) قَالَ: كَانَ ذَلِكَ النَّارُ نُورَهُ (وَمَنْ حَوْلَهَا) أَيْ بُورِكَ مَنْ فِي النُّورِ وَمَنْ حَوْلَ النُّورِ. وَكَذَلِكَ رُوِيَ بِإِسْنَادِهِ مِنْ تَفْسِيرِ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) يَعْنِي نَفْسَهُ قَالَ: كَانَ نُورُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي الشَّجَرَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا. حَدَّثَنَا أَبِي؛ ثَنَا إبْرَاهِيمُ

1 - أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ج1ص177)، ومسلم (179) باختلاف يسير.

بْنُ سَعِيدٍ الْجَوْهَرِيُّ؛ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ؛ عَنْ شيبان؛ عَنْ عِكْرِمَةَ: (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ) قَالَ: كَانَ اللَّهُ فِي نُورِهِ[1].

قوله سبحانه: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ): حصر وقصر بـ (إنّ) والضمير المنفصل (أنا)؛ لقطع أي شك. ويشير ابن تيمية – رحمه الله - إلى أنّ هذا الحوار المباشر من الله لموسى بلا واسطة ملك هو تشريف "التكليم" الذي اختص به موسى، وهو رد على من ينكر صفة الكلام لله تعالى، فالكلام حقيقي مسموع بلفظه ومعناه.

*(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

يرسم سيد قطب – رحمه الله - مشهد الفزع الإنساني بأحرف تفيض بالحركة: (وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)، الجملة تصور رجلاً يهرب بكل قوته ولا يلتفت وراءه مطلقاً. هذا التعبير يجسد الخوف البشري الفطري الصادق؛ فنبي الله موسى واجه مفاجأة مرعبة: العصا الخشبية الجامدة تتحول إلى ثعبان سريع الحركة خفيف كأنه "جانّ" (والجانّ هو الحية السريعة والنشيطة).

إشراقة بلاغة: (كَأَنَّهَا جَانٌّ): تشبيه بليغ وموجز يجمع بين الحجم الكبير المرعب المخيف والسرعة الانسيابية الفائقة للحية الصغيرة.

(وَلَمْ يُعَقِّبْ): يسمي البلاغيون هذا الأسلوب: استعارة مكنية من التعقيب في السير (وهو الالتفات أو الرجوع لتقصي الأثر)، للدلالة على شدة الفزع.

(يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ): النداء اللطيف للتأمين ومحو الرهبة. استخدام الجملة الاسمية المؤكدة بـ (إنّ): (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) لم يقل "سأؤمنك"، بل جعل الأمان صفة لازمة له وجزءاً من كينونته في ذلك المقام القدسي.

*(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ).

إشراقة بلاغية: (اسْلُكْ): فعل يحمل معنى الإدخال بعناية وسلاسة ونفاذ، وقوله: (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ): "السوء" هنا هو البرص. هذا الاحتراز البلاغي ضروري لئلا يتوهم الرائي أن البياض ناتج عن علة جسدية، بل هو بياض إشعاعي ونوراني معجز.

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ): يسميها البلاغيون: استعارة تمثيلية في غاية الجمال؛ شُبّه موسى في روعه وخوفه بالطائر الذي يضم جناحيه ليسكن ويستقر ويبعد عنه الفزع، وجناحا الإنسان هما ذراعاه أو يداه.

---

1 - ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج5/ص460) فبما بعدها.

وقد استنبط ابن القيم – رحمه الله - من هذه الآية قاعدة سلوكية عجيبة فقال: "إذا خاف الإنسان من شيء فليضم يده إلى صدره، فإن ذلك يذهب روعه وينزل السكينة على قلبه؛ تلوذًا بامتثال هذا التوجيه الرباني لموسى" تلمسًا للسكينة الإلهية.

(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ): الإشارة بالتثنية (العصا واليد) باستعمال اسم الإشارة البعيد تفخيماً وتعظيماً لشأن هاتين المعجزتين.

*(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ): يعود موسى عليه السلام إلى واقعه البشري بعد تجربة الوحي المهيبة؛ يتحدث بصدق تام مع ربه. هو لا يعتذر تملصاً من التكليف، بل يشرح معوقات الواقع الخارجي طلباً للاستعداد والتثبيت.

(إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا): يشير بها إلى القبطي الذي وكزه فقضى عليه. الاعتراف هنا يبرز الخوف الطبيعي البشري (خوف القصاص والقتل)، والأنبياء بشر تجري عليهم الطبائع الإنسانية لكنهم يعتصمون بالوحي.

*(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)

إشراقة بلاغية ولطائف تربوية: (أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا): نبل وأمانة من موسى - عليه السلام -؛ حيث اعترف بميزة أخيه دون حسد أو غيرة، وطلب توظيف الكفاءات لإنجاح الدعوة. فصاحة اللسان ضرورية لمواجهة الطغيان الفرعوني القائم على الخطابة الكاذبة وحشد الملأ.

(رِدْءًا يُصَدِّقُنِي): الردء هو المَعين والظهير الذي يسند الظهر ويثبّت الرأي. عبّر موسى عن غايته بـ (يُصَدِّقُنِي) بصيغة الجزم في جواب الطلب، ليدل على أن وجود هارون معه سيعزز صدق حجته فوراً بشكل قطعي ويقيني في مواجهة تكذيب فرعون المرتقب (إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ).

*(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ).

إيجاز الإعجاز والتمكين: (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ): هنا ما يسميه البلاغيون استعارة تمثيلية رائعة مبنية على الكناية؛ والعضد هو أقوى جزء في اليد، وشد العضد كناية عن التقوية التامة، والمعونة، والمساندة المادية والمعنوية. وقد سارت هذه الآية مسار المثل البلاغي في التعاضد والتآزر الإنساني.

(وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا): السلطان هنا هو قوة الحجة والبرهان الباهر، مع الهيبة الإلهية التي تحميهما من القتل أو البطش المباشر.

(فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا): نفي قاطع للوصول بـ (لا) لنفي الاستقبال، مما يمنحهما حصانة تامة وأماناً مطلقاً ينسف مخاوف موسى السابقة (أَن يَقْتُلُونِ).

(بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ): الباء في (بِآيَاتِنَا) للملابسة أو السببية، أي: متلبسين ومستعينين بآياتنا، تقديم الجار والمجرور (بِآيَاتِنَا} للاهتمام والتشريف.

خاتمة: الجملة الاسمية (أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) أكدت الغلبة للمؤمنين بأقوى صيغ التأكيد، وهي بشارة أبدية تتخطى زمن موسى لتصل إلى المسلمين المستضعفين في كل عصر ومصر؛ لتؤكد لهم أن الغلبة والنصر حتميان بشرط الاتباع والتمسك بالآيات.

*(فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(43))

هذا السياق القرآني في هذا الدرس من سورة القصص ينقلنا من جلال مناجاة موسى عليه السلام لربه جل وتعالى والاصطفاء في الوادي المقدس، إلى غبار المعركة العقدية والسياسية على أرض الواقع في مصر الفرعونية. كما أنّه انتقال من مرحلة "التثبيت والإعداد" إلى مرحلة "المواجهة والصدام" بين المنهج الإلهي والعتوّ البشري.

*(فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

لطائف سياقية ونفسية: يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ المفاجأة هنا مذهلة؛ فموسى يدخل البلاط الملكي ومعه آيات واضحة لا غبش فيها، ولكن الرد الجاهلي يأتي فورياً ومعلباً دون تفكير: (مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى). إنّه منطق الطغيان العاجز الذي يهرب من قوة الحجة إلى التشويه والاتهام الجاهز.

(بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ): الجمع والتعريف بـ "نا" العظمة المضافة إلى الآيات، ووصفها بـ "بينات" (وهي حال مؤكدة) يدل على وضوح الدلالة العقلي والحسي؛ فالحجة كالشمس لا تحتاج إلى دليل، ومع ذلك واجهوها بالإنكار.

أداة الحصر (مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى): استخدام القصر بالنفي والاستثناء لصبغ الآيات المعجزة بصبغة التزييف البشري، ووصفها بـ "مفترى" (أي مخترع ومصنوع) لإبعاد التهمة عن فرعون وإلصاقها بموسى.

التمسك بالتقليد (وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ): يحلل ابن عاشور – رحمه الله - هذا التمسك بأنه تبرير سيكولوجي واهٍ؛ حيث جعلوا عدم علم آبائهم بالشيء دليلاً على بطلان الشيء نفسه! وهو منهج الجهل الذي يقدس الموروث الباطل لمجرد قِدمه.

*(وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

إشراقة الأسرار البلاغية: (رَبِّي أَعْلَمُ): لم يدخل موسى عليه السلام في جدال عقيم حول ما وصفوه بالسحر، بل تفادى المهاترة وسلك مسلك "التفويض واليقين الروحي". صيغة أفعل التفضيل (أَعْلَمُ) تسحب البساط من دعاوى فرعون وتكل الأمر للحق المحيط بكل شيء.

(بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ): تلطف بليغ وأدب عظيم؛ لم يقل "أنا جئت بالهدى وأنتم بالضلال"، بل جاء بلفظ مبهم موصول (بِمَن) مع أنه يعنيه بالتأكيد، وفي هذا إنصاف علمي وتجرد يهز وجدان الخصم.

(عَاقِبَةُ الدَّارِ): إضافة العاقبة إلى الدار تفيد الاستقرار الدائم والنصر النهائي في الدنيا والآخرة.

التعليل والتقرير الذاتي (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ): تذييل بليغ يجري مجرى المثل. استخدام الجملة الاسمية المؤكدة بـ "إنّ" لنفي الفلاح نفيًا مستمرًا وشاملاً عن كل ظالم، والظلم هنا يشمل الشرك والتكذيب والطغيان السياسي.

*(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ).

البلاغة النفسية والسخرية الفرعونية: (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ): نداء استعطافي استعلائي في آن واحد؛ يوجهه إلى حاشيته والمستفيدين من نظامه، ليوهمهم بأنه يشاورهم ويحرص على مصلحتهم العقدية.

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي): دقة لغوية مذهلة؛ فرعون لم يقل "ليس لكم إله غيري" بنفي مطلق، بل قال (مَا عَلِمْتُ) رابطاً النفي بجهله وبما يحويه علمه القاصر، ليرسم لنفسه صورة الحاكم "العقلاني" الذي لا يثبت إلاّ ما يقع تحت علمه وحواسه!

(فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ): يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أن العدول عن لفظ "الآجر" أو "الفخار" إلى "أوقد على الطين" هو إشارة تفصيلية

دقيقة تصف صناعة الطوب المحروق لأول مرة في تاريخ البناء الضخم، وهي دقة تاريخية للمصريين القدماء سجلها القرآن قبل كشف الأثريات بقرون.

(فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ): بناء الصرح الشاهق يمثل ذروة السخف العقلي الممزوج بالغطرسة؛ إذ يظن فرعون أن الخالق المعبود يمكن الوصول إليه بالصعود الحسي المادي في سماء الأرض.

(وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ): أكد ظنه بـ "إنّ" واللام المزحلقة ومن البيانية لتثبيت التهمة بموسى، والظن هنا يراد به القطع في سياق الاستهزاء والتكذيب.

*(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ): يربط ابن القيم - رحمه الله - بين الاستكبار وعدم الإيمان بالمعاد؛ فالطغيان لا يتكامل في النفس البشرية إلاّ عندما تنسلخ من فكرة المحاسبة الأخروية.

(فِي الْأَرْضِ): لسانياً، التنكير هنا يشير إلى الأرض التي ملكوها وتحت يدهم (مصر)، والتعريف يفيد الاستغراق والتعميم؛ أي أنهم تصرفوا كأنهم ملكوا كوكب الأرض بأسره.

(بِغَيْرِ الْحَقِّ): قيد كاشف وواصف للاستكبار؛ فكل استكبار بشري هو بالضرورة بغير حق، لأن الكبرياء لله وحده لا شريك له.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ): تقديم المجرور (إِلَيْنَا) يخدم الحصر والتأكيد، أي: ظنوا أن مرجعهم لن يكون إلى الخالق الذي يحاسبهم، فمضوا في غيهم بلا رادع أخلاقي.

*(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ): كلمة (فَنَبَذْنَاهُمْ) تحمل شحنة دلالية في غاية القوة والتحقير. "النبذ" في اللغة هو طرح الشيء التافه الحقير الذي لا قيمة له (كالنواة أو الحصاة).

فرعون الذي كان يتبجح بملكه وأنه الإله العظيم، وجنوده الذين ملؤوا الأرض صخباً وجبروتاً، تحولوا في لحظة خاطفة بفضل القدرة الإلهية إلى مجرد أشياء مهملة تُلقى في قاع البحر بلا أدنى مجهود.

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ): خطاب للرسول ﷺ وللمتلقي من بعده. استخدام فعل الأمر (فَانظُرْ) للتفكر والاعتبار، واستفهام التعجيب والتهويل بكيف (كَيْفَ كَانَ) يعظم من هول النهاية وسقوط الطغاة.

*(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ): يرى البغوي – رحمه الله - أن الجعل هنا هو جعل قدري عقابي تخليةً وخذلاناً؛ فبسبب طغيانهم واختيارهم الضلال، جعلهم الله قادة يُقتدى بهم في الشر والكفر.

ويشير ابن تيمية – رحمه الله - إلى أن الإمامة في النار تقابل الإمامة في الهداية والتقوى، وهو تحذير شديد للنخب السياسية والفكرية التي تقود الجماهير نحو حتفها الروحي بالدعاية الباطلة.

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ}: نفي قاطع لأي واسطة أو قوة تدفع عنهم العذاب، لتتحطم ادعاءات السيطرة والملك التي تشدقوا بها في الدنيا.

عن عائشة رضي الله عنها، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: رَأيتُ جَهَنَّمَ يَحطِمُ بَعضُها بَعضًا، ورَأيتُ عَمرًا يَجُرُّ قُصبَه، وهو أوَّلُ مَن سَيَّبَ السَّوائِبَ. [1].

*(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ)، إشراقة بلاغية: (وَأَتْبَعْنَاهُمْ): تفيد الملاحقة والالتصاق؛ فاللعنة (وهي الطرد من رحمة الله) تطاردهم أينما ذهبوا وتلتصق بذكرهم وتاريخهم في الدنيا إلى يوم يبعثون.

(هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ): أكد خزي الآخرة بالجملة الاسمية والضمير (هُم). المقبوحين: اسم مفعول من القَبْح، وهو الإبعاد والتشويه وتغيير الصورة إلى السوء الشديد والذل والهوان. فهم مطرودون مكروهون في المشهد الأخروي الشاخص أمام الخلائق.

وهذا قريب من قوله تعالى: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) [غافر:46].

*(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

جماليات التتمة والانتقال التاريخي: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ): أسلوب مؤكد باللام وقد لتقرير الحقيقة العظمى؛ فبعد فناء الطغيان الفرعوني، يبدأ عهد التشريع الإلهي المكتوب لتوجيه البشرية.

(مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ): إشارة تاريخية وسياقية هامة؛ فالكتاب (التوراة) نزل بعد زوال الحضارات القديمة المستكبرة (عاد، ثمود، قوم لوط، قوم فرعون)، ليكون بمثابة مرحلة جديدة من الإرشاد والتوثيق المكتوب للبشرية الناضجة.

1 - أخرجه البخاري (4624)، ومسلم(2856)

المفاعيل الثلاثة المتتابعة في النظم: (بَصَائِرَ): جمع بصيرة، وهي نور القلب والعقل الذي تنكشف به الحقائق (مصدر المعرفة الأعمق).

(وَهُدًى): إرشاد ودلالة وتوجيه حركي عملي في واقع الحياة، (وَرَحْمَةً): النتيجة والثمرة النهائية لتطبيق هذا المنهج الرباني.

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ): الختام بـ "الرجاء" يحث العقول البشرية في كل زمن على التفكر والاستيقاظ من غفلة المادة ومصير الطغاة، فالتذكر هو غاية ما يحتاجه الإنسان لئلا يكرر مأساة فرعون وجنوده.

*(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة القصص أتت مِعْرجًا حاسمًا في السورة؛ إذ تنقل السياق من تفصيل القصص التاريخي (قصة موسى عليه السلام) إلى مواجهة المشركين بالبرهان القاطع على صدق نبوة الرسول ﷺ.

*(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

يلاحظ البقاعي – رحمه الله - أنّ هذه الآية هي أول جَسْر يربط بين التاريخ الماضي والواقع المعاصر للنبي ﷺ. بعد أنْ فصّل الله قصة موسى من المهد إلى النبوة، جاء التعقيب بـ (وَمَا كُنتَ) ليقول: هذا الغيب التفصيلي الدقيق لا سبيل لك إليه إلاّ بالوحي، فهو حجة قاطعة على صدق رسالتك.

إشراقة بلاغية: التنكير في "جانب": يشير إلى البعد المكاني المحدد بدقة، ولم يقل "في الجهة الغربية"، بل حدد "بجانب" لمزيد من تقريب وتجسيد المشهد التاريخي.

كما أنّ التعريف باللام في "الغربي": هو نعت لمحذوف تقديره "المكان الغربي" أو "الجبل الغربي". وحذف الموصوف هنا يفيد الاختصار البليغ وتركيز الذهن على الجهة الجغرافية بدقة لم يشهدها النبي ﷺ.

يراجع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أعلاه، عند قوله تعالى: ((فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

إيجاز القصر في "قضينا إلى موسى الأمر": "الأمر" هنا هو الوحي والرسالة والتكليف، وجاء معرفاً بـ (الـ) العهدية لتعظيم هذا الأمر وتهويل شأنه.

تعدية الفعل بـ (إلى): (قَضَيْنَا إِلَىٰ)، الحرف "إلى" هنا يضمن الفعل معنى "أنهينا وأوحينا إليه واصطفيناه"، فهو انتهاء الغاية في التكليف.

الجملة الاسمية المؤكدة بالنفي والاستثناء الضمني: (وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)، أي: من الفئة الحاضرة التي شأنها شهود مثل هذه العظائم، وهو نفي أبلغ للشهود الفعلي وبطريق الأَوْلى نفي المشاهدة العارضة.

يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ هذا التعبير يوقظ الوعي الإنساني بـ "المشهد الغائب". الروح البشرية تسافر عبر الزمن من خلال الوحي؛ فالنبي لم يكن هناك جسداً، ولكنه بعين الوحي يرى المشهد وكأنه حاضر.

أمّا شيخ الإسلام – رحمه الله - فيستدل بهذه الآيات على أن إخبار النبي ﷺ بقصص الأنبياء الماضين بتفاصيلها، مع كونه أمياً نشأ بين جاهليين لا يعرفون هذه الكتب، هو من أقوى البراهين العقلية الضرورية على النبوة؛ لأن تحصيل هذا العلم من غير وحي ممتنع عقلاً وعادة.

أما الإمام البغوي – رحمه الله فيوضح أنّ "الغربي" هو غربي الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وهو تأكيد ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية أعلاه.

وينبه ابن عاشور – رحمه الله - إلى أنّ هذا الأسلوب يسمى "توجيه الحجة بانتفاء الموانع المعرفية"، فالرسول ﷺ لم يقرأ كتبهم، ولم يجالس أحبارهم، ولم يحضر وقائعهم، فلم يبقَ إلاّ المصدر الإلهي.

*(وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

تطاوُل العُمُر والزمن أدى إلى نسيان العهود والرسالات الأولى مما أدى إلى فجوة تاريخية تطلبت بعثة محمد ﷺ

بعد أن عرضت السورة تفاصيل قصة موسى عليه السلام من الميلاد والنشأة والفتون والهجرة إلى مدين ثم العودة والوحي، التفت السياق مباشرة إلى الرسول محمد ﷺ ليربط بين هذه الغيوب التاريخية الدقيقة وبين صدق رسالته.

يقول البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) إنّ هذا الاستدراك بـ (ولكنّا) يأتي لبيان الحكمة من إرسال محمد ﷺ؛ فبين زمن موسى وزمن محمد دهور متطاولة، دَرَست فيها معالم الرسالات وتطاول فيها الأمد وقست القلوب، فمست الحاجة إلى رسالة جديدة تجدد ما اندرس.

(ثاويًا): الثواء هو الإقامة الطويلة مع الاستقرار والاستئناس بالمكان. بدل "مقيمًا" أو "جالسًا"، قال سبحانه: (ثاويًا)، ليدل على المخالطة والمعايشة التي تتيح للإنسان نقل أدق تفاصيل الحياة اليومية لأهل مدين.

(فتطاول عليهم العُمُر): إسناد التطاول إلى "العُمر" (وهو الزمن الممتد) فيه مجاز عقلي، يصور الزمن كأنه كائن يمتد ويزداد طولاً، مما يورث الغفلة والنسيان.

إشراقة المقابلة البلاغية في الاستدراكين: الاستدراك الأول: (وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ) دفعًا لتوهم أن انقطاع خبر موسى يقتضي نسيانه الكلي، فبين أنه طال عليهم الأمد فنسوا، فاحتيج إليك.

الاستدراك الثاني: (وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) وهو استدراك على النفي (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)، قال مقاتل: يقول: لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم، أي: لم تشهد تلك الأحداث بنفسك، ولكن مرجع علمك بها هو إرسالنا إليك ووحينا لك. هذا الأسلوب يسمى في البلاغة "قصر طريق المعرفة على الوحي" بطريق الاستثناء والاستدراك.

البُعد التربوي والوجداني: يشير سيد قطب – رخمه الله – (في ظلال القرآن) إلى أن هذه الآية تكشف عن خط سير البشرية؛ فالزمن إذا طال على الأمم دون تذكير بالوحي، رانت القلوب وتلاشت الحقائق. والوحي هنا ليس مجرد إخبار تاريخي، بل هو "تدخل إلهي لإنقاذ البشرية من التيه والنسيان الملازمين لطول الأمد". ويضيف شقيقه محمد قطب – رحمه الله - أنّ في هذا ردًا على الماديين الذين يفسرون التاريخ بالتطور المادي البحت، فالقرآن يرجع حركة التاريخ إلى غفلة القلوب وضرورة الرسالة لتصحيح المسار.

*(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)، أي: ولكن رحمناك رحمة بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

إشراقة بلاغية أسلوبية: صيغة القصر بالنفي والاستدراك: (وَمَا كُنتَ... وَلَٰكِن رَّحْمَةً...).

إعراب (رحمةً): نصبها فيه أسرار بلاغية؛ فهي إما مفعول لأجله (أي: فعلنا ذلك وأوحينا إليك رحمةً)، أو مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره "رحمناك رحمةً"، وفي هذا إيجاز حذف فخم يركز على مطلق الرحمة الإلهية المهداة للبشرية.

(إذ نادينا): حذف مفعول "نادينا" (المنادى هو موسى) للتعظيم والتفخيم، ليبقى الذهن منشغلاً بجلال النداء الإلهي ذاته.

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - أنّ نفي حضور النبي ﷺ في هذه المواطن (مدين، الطور) هو من أعظم البراهين العقلية على نبوته. فالرجل الأمي الذي لا يقرأ كُتب أهل الكتاب، يصف هذه المشاهد بدقة تفصيلية لا يعرفها إلاّ من حضر أو أُوحي إليه.

ويربط ابن القيم – رحمه الله - في الفوائد بين الوحي والرحمة: "فالوحي نفسه رحمة، وإرسال الرسول ﷺ رحمة، والمنذرون هم المرحومون إن تذكروا". فالتعليم بالوحي ليس ترفًا معرفيًا، بل هو انتشال من الهلاك.

(مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ): يُبين ابن عاشور – رحمه الله - أنّ النفي هنا مقيد بـ "أهل مكة" أو الفترة الزمنية القريبة (الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام)، والمقصود استثارة حميتهم للتذكر، فالحجة قد قامت عليهم بمجيء النذير بعد طول انقطاع.

*(وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ) عقوبة ونقمة (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) من الكفر والمعصية (فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا) هلاّ، (أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

إعجاز التركيب والشرط: في الآية إيجاز حذف بديع؛ فجواب الشرط لـ (ولولا) محذوف يقدَّر بما يناسب السياق. التقدير البلاغي: "ولولا أن يعتذروا بهذا العذر إذا عذبناهم، لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، ولكنا أرسلناك لقطع حجتهم [1].

تكشف الآية عن الطبيعة البشرية – كما علق محمد قطب رحمه الله - في التملص من المسؤولية وقت الكرب. فالإنسان حين تصيبه المصيبة بما قدمت يداه من الكفر والمعاصي، يتعلل بعدم وصول الدليل البين إليه: (لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا). الوحي هنا يسبق "الحجة الوجدانية" للإنسان، ليموت من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة.

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص901).

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ): عبر بالأيدي لأن غالب أعمال الإنسان تقع بها، وهو مجاز مرسل علاقته "السببية" أو "الجزئية" للتعبير عن كسب الإنسان الشامل (أفعال القلوب والأسماع والأبصار).

(فَنَتَّبِعَ) / (وَنَكُونَ): نُصبت الأفعال بأن المضمرة في جواب التحضيض {لولا}، لتدل على الترتيب والتعقيب المباشر، فهم يدعون أنهم بمجرد رؤية الرسول سيؤمنون فورًا بلا تردد.

بل كانوا يقسمون على أنهم سيسبقون غيرهم في الهداية: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) [غافر:42].

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ).

(سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر: أي القرآن والتوراة، وقرأ الباقون : ساحران، أي: موسى ومحمد، أو موسى وهارون، صلى الله عليهم وسلم، على تقدير حذف مضاف، أو وصفهما بالسحر مبالغة). وتظاهرا: أي تعاونا وتآزرا، كل سحر يقوي الآخر.

هذا التنوع القرائي يثري المعنى البلاغي؛ فالكفر لم يوجه لشخص الرسول فقط، بل للرسالة ذاتها (الكتب/السحر) وحامليها (الرسل/السحرة)، مما يظهر شمولية عنادهم.

يكشف سيد قطب – رحمه الله- هنا "عقدة العناد والتهرب من الحق"؛ فحين جاءهم الحق الذي طلبوه، انتحلوا عذرًا جديدًا: "لماذا لم يأت بالمعجزات المادية كعصا موسى واليد البيضاء؟".

يجيب القرآن بفضّ هذه المغالطة فورًا: (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ). إنها طبيعة "القلب الجاحد"؛ لا تنقصه الأدلة، بل ينقصه الاستعداد لتلقي الحق. وكما يقول ابن القيم – رحمه الله -: "صاحب الهوى لا تقنعه آية، مستدلاً بقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) [يونس:96-97].

إشراقة بلاغة اسلوبية: قوله تعالى: (مِنْ عِندِنَا): إضافة "العندية" تفيد غاية الشرف والصدق واليقين للحق المنزل.

(إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ}: تقديم الجار والمجرور (بِكُلٍّ) للاهتمام والتعميم، كأنهم يعلنون كفرهم المطبق بجميع الكتب والرسل بصلف وعنجهية.

*(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

ركن التحدي	تفصيله في الآية الكريمة
الأمر الإعجازي	(قل فأتوا) أمر تعجيز وتقريع
المادة المطلوبة	(بكتاب من عند الله) مساو في المصدرية من عند الله
الشرط الأخلاقي	(هوأهدى منهما) أكثر هداية من التوراة والقرآن
النتيجة النطقية	(أتبعه) إعلان جهوزية الرسول صلى الله عليه وسلم لاتباع الحق أينما كان

بلاغة النصف والإنصاف: هذه الآية تمثل ذروة "أدب الحوار والإنصاف البلاغي" في القرآن الكريم. الرسول ﷺ لا يدعو لعصبية ذاتية، بل يطلب الهدى. فيقول لهم: إن كنتم تزعمون أن التوراة والقرآن سحر وكفر، فأتوا بكتاب آخر من عند الله يكون أكثر هداية للناس، وسأكون أنا أول متبعيه.

يستدل ابن تيمية – رحمه الله - بهذه الآية على أنّ "القرآن والتوراة هما أفضل وأهدى الكتب التي أنزلت على البشر"؛ لأنه عجز الخلق عن الإتيان بما هو أهدى منهما، فاقتران التوراة (الأصلية قبل التحريف) بالقرآن في القرآن تكرر كثيرًا لأنهما نورا العالم.

*(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

السبيل الإنساني: طريق الوحي والهدى أو طريق الهوى والظلال، هذا هو التقسيم الثنائي الحاصر عند ابن القيم – رحمه الله:

حيث يقف – رحمه الله - عند هذه الآية وقفة جليلة في كتاب إغاثة اللهفان، فيقرر أن الأمور ثنائية لا ثالث لها: إما استجابة للرسول، وإما اتباع للهوى.

"فكل من لم يستجب للرسول ﷺ، فهو متبع لهواه رغماً عنه؛ إذ ليس هناك طريق ثالث يُسلك".

إشراقة بلاغية: (فَاعْلَمْ): الخطاب للرسول ﷺ، والمقصود منه تسليته وتثبيته، وتيئيسه من إيمانهم القائم على العناد، مع فضح حقيقتهم للسامعين.

أداة الحصر (أَنَّمَا): تفيد حصر دافعهم لعدم الاستجابة في "اتباع الهوى" فقط، ولا عذر معرفي أو عقلي لديهم.

الاستفهام الإنكاري التعجيبي: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)؛ الاستفهام هنا يحمل معنى النفي الممزوج بالتقبيح، أي: لا أحد أشد ضلالاً وضياعاً ممن جعل هواه إلهاً يقوده بعيداً عن منهج الله.

التقييد بـ (غَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ): تبيان أن الهوى بحد ذاته قد لا يكون مهلكاً إذا هذّبه هدى الله وضبطه الشرع، وإنما الهلاك في الهوى المطلق المعزول عن نور الوحي.

خاتمة الآية والتذييل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ): تذييل بليغ يجرى مجرى المثل. وفيه إشارة لسانية إلى أن هؤلاء تلبسوا بالظلم (ظلم أنفسهم بالإعراض والشرك)، والظالم لا يستحق معونة الله بالتوفيق والهداية طالما أنه آثر الهوى وعاند الدليل البين.

*(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ(59))

هذا النص القرآني الشريف في هذا الدرس من سورة القصص ملحمة بيانية ودعوية متكاملة، تنتقل بالنفس البشرية من التذكير والوصال الإلهي، إلى عرض النماذج الإنسانية الراقية التي استجابت للمنهج، مرورًا بحقائق الهداية الكبرى، وتفنيد المعايير المادية الواهية التي تمنع الناس من الاتباع، وصولًا إلى السنن الإلهية في إهلاك القرى وعمرانها.

*(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)، يرى البقاعي – رحمه الله - في نظم الدرر أنّ هذه الآية تأتي رابطةً بين ما تقدم من قصص موسى -عليه السلام- وبين حال مشركي مكة.

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) قال ابن عباس رضي الله عنهما: بيّنّا، وقال الفراء: أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضها، حجة تلو حجة، (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) أي: فيهتدون.

التوكيد اللفظي والتركيبي: افتتحت الآية بمؤكدات ثلاثة: (الواو القسمية المقدرة، اللام الواقعة في جواب القسم، و"قد" الحرفية الدالة على التحقيق) (وَلَقَدْ).

هذا الزخم التوكيدي يهدف إلى إزالة الشك ودفع العناد الإنساني. بنية الفعل (وَصَّلْنَا): جاء الفعل على وزن (فعَّل) المضعّف، والتضعيف هنا يفيد التكثير،

التدريج، والتتابع. أي: أن التنزيل لم يكن دفعة واحدة تربكهم، بل جاء متناسقًا متتابعًا يشد بعضه بعضًا ليكون أسهل في الفهم والاستيعاب.

إشراقة بلاغية وبيانية: هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية: حيث شُبّه "القول" (وهو معنوي) بحبل أو خيط يُوصَل بعضه ببعض (مادي)، وحذف المشبه به ودل عليه بلفظ "وصَّلنا" على سبيل الاستعارة المكنية. جماليتها تكمن في تصوير الوحي أنه حبل نجاة ممدود من السماء إلى الأرض متصل لا ينقطع.

التعليل بـ (لَعَلَّهُمْ): تفيد "لعل" هنا التعليل والرجاء بالنظر إلى المخاطبين، أي: ليكونوا على رجاء من التذكر، أو لتأكيد إقامة الحجة الإلهية عليهم فلا يبقى لهم عذر.

إضاءة تدبرية : يقف سيد قطب – رحمه الله – (في ظلال القرآن) عند هذه الآية معتبرًا إياها لفتة حانية وتوبيخية في آن واحد: "إنها رعاية الله لهذا الإنسان.. لم يدعه هملاً، ولم يتركه لجهالته، بل وصّل له القول.. ومضى يعالج جوانب نفسه بكل أسلوب، ويسلك إليها كل طريق.. فما باله يعرض ويمتنع؟!"

*(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ): تنتقل الآيات هنا من ذم المعرضين من قريش إلى مدح المنصفين من أهل الكتاب (كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي ونصاري نجران).

هذا الأسلوب يسمى في البلاغة "الالتفات بالمقابلة" أو "التقسيم المقابل" للتعريض، وإثارة دافع الغيرة والمنافسة في نفس المشركين العربيّين.

البنية التركيبية: التقديم والتأخير والقصر: جملة (هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ) تقدّم فيها الجار والمجرور (به) على الفعل (يؤمنون). التقديم هنا يفيد الاختصاص والاهتمام.

كما أنّ ضمير الفصل (هُم): جاء ليؤكد المبتدأ، والتقدير: "هم -دون غيرهم من المعاندين- الذين يؤمنون به حق الإيمان".

إشراقة بلاغية والبيان: يوضح ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) أن التعبير بـ (آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) دون تحديد (التوراة أو الإنجيل) بالاسم، إشارة بالعموم إلى جنس الكتب السماوية، وأن "الكتاب الحقيقي" يربي أصحابه على الانفتاح للحق أينما ظهر، فالذي آمن بكتاب حقيقي بصدق، سيقوده ذلك حتمًا للإيمان بالقرآن.

*(وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) يركز محمد قطب – رحمه الله - في دراساته حول النفس البشرية على انسيابية العقيدة وتناغمها.

الآية تجسد هذه الحالة النفسية السوية: استخدام الفعل المضارع (يُتْلَىٰ) يفيد الاستمرار والتجدد؛ أي كلما تكررت التلاوة تكرر منهم هذا الفيض الوجداني.

السرعة والبديهية في الإجابة: (قَالُوا آمَنَّا بِهِ) بدون تردد أو تسويف. إشراقة أسلوبية وبلاغية: التوكيد بـ (إِنَّهُ): جاء الجواب معززاً بـ (إنّ) واسمها لقطع أي شك: (إِنَّهُ الْحَقُّ).

التعريف بـ (الـ) الجنسية في "الحق" يفيد حصر الحقيقة المطلقة فيه، كما أنّ التعليل بـ (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ): تعليل لسرعة إيمانهم. وفي هذا جمال لغوي عجيب؛ فهم لم يروْا الإسلام طارئًا عليهم، بل هو امتداد طبيعي لفطرتهم وسابق إيمانهم.

إضاءة ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله – في هذه الآية دليل على "وحدة الدين وتعدد الشرائع". فالإسلام بالمعنى العام هو الاستسلام لله بالتوحيد، وهو دين الأنبياء جميعاً من قبل (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﷺ) [آل عمران:19]. لذلك قالوا: (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)؛ لأنهم كانوا متمسكين بالتوحيد الخالص، فلما جاء القرآن وجد أرضاً خصبة مستعدة، فامتزج النور بالنور.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الأنبياءُ إخوَةٌ لعَلَّاتٍ: دِينُهم واحِدٌ، وأُمَّهاتُهم شَتَّى، وأنا أوْلى النَّاسِ بعيسى ابنِ مَريمَ [1].

*(أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

إشراقة بلاغية وبيانية: اسم الإشارة (أُولَٰئِكَ): استخدام اسم الإشارة للبعيد يفيد التعظيم وعلو المنزلة. كما أنّ بناء الفعل لما لم يسم فاعله (يُؤْتَوْنَ): للعلم به (وهو الله سبحانه)، وفيه دلالة على فيض الكرم وتيسير العطاء من حيث لا يحتسبون.

المقابلة والمدافعة (يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ): "الدرء" هو الدفع الشديد. هنا كذلك ما يسميه البلاغيون: استعارة رائعة توضح قوة المدافعة الأخلاقية، حيث لا يقابلون الأذى بالأذى، بل يدفعون طاقة الشر السلبية بطاقة الخير الإيجابية.

الأسلوبية والتحليل النحوي: السببيّة في (بِمَا صَبَرُوا): الباء هنا سببية، وما مصدرية، أي: بسبب صبرهم. والصبر هنا تضاعف لأنهم صبروا على مشقة الإيمان بكتابهم الأول، وصبروا على معاداة قومهم لهم عند اتباعهم للنبي محمد ﷺ.

كما أنّ التبعيض في قوله تعالى: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ): (مِن) في "ومما" تفيد التبعيض، وهي لفتة بلاغية دقيقة تدل على رحمة الله؛ فهو لم يطلب إنفاق كل المال بل بعضه، وتقديم الجار والمجرور للاعتناء بمصدر الرزق وهو الله وحده.

---

1 - أخرجه أبو داود (4324) باختلاف يسير، وأخرجه البخاري (3443) مختصراً

هؤلاء صبروا على كتابهم الأول ثم صبروا على الإيمان بالقرآن وتحمّلوا أذى السفهاء، فاستحقوا الأجر مرتين بنص الحديث الشريف.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثَلاثةٌ يُؤتَونَ أجرَهم مَرَّتَينِ: الرَّجُلُ تَكونُ له الأَمَةُ، فيُعَلِّمُها فيُحسِنُ تَعليمَها، ويُؤَدِّبُها فيُحسِنُ أدَبَها، ثُمَّ يُعتِقُها فيَتَزَوَّجُها، فله أجرانِ، ومُؤمِنُ أهلِ الكِتابِ، الذي كان مُؤمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلَه أجرانِ، والعَبدُ الذي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، ويَنصَحُ لسَيِّدِه. ثُمَّ قال الشَّعبيُّ: وأعطَيتُكَها بغيرِ شيءٍ، وقد كان الرَّجُلُ يَرحَلُ في أهونَ مِنها إلى المَدينةِ. [1].

*(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ).

سياق السلوك والتربية الأخلاقية: هذه الآية ترسم الملامح السلوكية والنفسية للشخصية المؤمنة المكتملة النضج.

إشراقة أسلوبية وبلاغية: الإعراض الفوري عن اللغو: (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ). التعبير بـ "إذَا" الشرطية التي تفيد تحقق الوقوع، وجاء جواب الشرط بالفاء المحذوفة لسرعة المباشرة، مما يدل على أن الإعراض سجية أصيلة فيهم وليس متكلفاً.

بلاغة "سلام المتاركة" (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ): السلام هنا ليس سلام تحية وود، بل هو "سلام متاركة وتوديع شريف"، ترفعاً عن مجاراة السفهاء.

القصر المقابل (نَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ): تقديم الخبر "لنا/ لكم" يفيد القصر والاختصاص الحاسم؛ أي لا نتحمل وزركم ولا تشركوننا في خيرنا.

إضاءة من سيد قطب "في ظلال القرآن": "إنها العزة الإيمانية المترَفِّعة التي لا تتدنس بالوحل، ولا تضيع وقتها وطاقتها في مهاترات العقليات الجاهلة. يقولون كلمتهم في هدوء صامت حازم، ويمضون في طريقهم البناء."

*(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)، سبق سبب النزول والبيان السياقي: نزلت هذه الآية في شأن أبي طالب عم الرسول ﷺ الذي حرص النبي كل الحرص على إسلامه ولكنه مات على الشرك. تظهر الآية فصلاً حاسماً بين الرغبة البشرية المشروعة والسنن الإلهية الكونية.

البلاغة والإعجاز الإيجازي: الالتفات والحصر الإلهي: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي...)، والهداية هنا هداية توفيق، استعمل أداة الاستدراك (وَلَٰكِنَّ)

1 - أخرجه البخاري (3011)، ومسلم(154)

لرفع التوهم بأن للرسول ﷺ قدرة على خلق الهداية والتوفيق في القلوب، وإنما مهمته هي هداية "الدلالة والإرشاد"، بينما لله هداية "التوفيق والقبول".

حذف مفعول المشيئة (مَن يَشَاءُ): والتقدير: "من يشاء الله هدايته" لعلم السامع به، وفي هذا إيجاز رائع يتوافق مع جلال القدرة الإلهية.

يوضح ابن القيم – رحمه الله - في مدارج السالكين أنّ الهداية معلّقة بمشيئة الله المبنية على علمه وحكمته، بدليل تذييل الآية بـ (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)، فالله لا يهدي أحداً عبثاً، بل يهدي من علم في قلبه خيراً واستعداداً للحق، ويصرف عنها من علم فيه كبراً وعناداً.

*(وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

الذريعة والرد: هذه الآية تمثل مواجهة للبرغماتية والمصالح الدنيوية التي تعيق قبول الحق. أداة الشرط (إن): استخدم المشركون "إنْ" الدالة على الشك والتردد لتبرير خوفهم؛ وكأنهم يقرون داخلياً بأنه "هدى" ولكن يمنعهم الخوف الوجودي من "التخطف" (الاستئصال والنهب والسرعة في الاختطاف).

إشراقة بلاغية وبيانسة الإلهي في الرد: الاستفهام الإنكاري التوبيخي: (أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ...) حيث وبخهم الله بإنكار هذا الخوف الواهي. فالذي أمنهم في الجاهلية وهم يعبدون الأصنام، كيف يضيعهم وهم يعبدونه وحده؟!

أما بلاغة التقديم والصفات (حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ): وصف الحرم بـ "آمناً"، وجاء بالفعل المضارع المبني لما لم يسم فاعله (يُجْبَىٰ) أي: يجمع ويُجلب بجهد ميسر، ليدل على حركة مستمرة من تدفق الرزق لبلد قاحل لا زرع فيه ولا ماء. التنكير للتعظيم (رِّزْقًا): نُكّر الرزق ليدل على وفرته وتنوعه وبركته.

يقف ابن عاشور – رحمه الله - عند (مِن لَّدُنَّا) مبيناً أنّ إضافة الرزق إلى "لدن" الله إشارة إلى التدخل الإلهي المباشر الذي يتجاوز الأسباب المادية المألوفة.

ويعلق سيد قطب – رحمه الله - مستخلصاً قانون العقيدة والأمن: "إن الأمن لا يصنعه الخوف والمهادنة على حساب العقيدة، بل يصنعه الإيمان والتوكل على الله. لقد ظنوا أن اتباع الهدى يجلب الخطف، فبين الله لهم أن الإيمان هو صمام الأمان المادي والمعنوي".

عن جابر بن عبد الله رضي الله قال: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَبِثَ عَشْرَ سِنينَ يَتْبَعُ الحاجَّ في مَنازِلِهم في المَوسِمِ وبِمِجَنَّةَ وبعُكاظَ، وبمَنازِلِهم بمِنًى يقولُ: مَن يُؤْويني؟ مَن يَنصُرُني؟ حتى أُبَلِّغَ رِسالاتِ ربِّي وله الجَنَّةُ؟ فلا يَجِدُ أحَدًا يَنصُرُهُ ويُؤْويه، حتى إنَّ الرَّجُلَ يَرْحَلُ مِن مُضَرَ، أو مِن اليَمَنِ، إلى ذي رَحِمِه، فيَأْتيه قَومُه،

فيَقولون: احْذَرْ غُلامَ قُرَيشٍ لا يَفتِنُكَ، ويَمشي بَينَ رِحالِهم يَدعوهم إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ يُشيرون إليه بالأصابِعِ، حتى بَعَثَنا اللهُ عَزَّ وجَلَّ له مِن يَثرِبَ، فيَأتيه الرَّجُلُ فيُؤمِنُ به، فيُقرِئه القُرآنَ، فيَنقَلِبُ إلى أهلِهِ، فيُسلِمون بإسْلامِه، حتى لم يَبقَ دارٌ مِن دُورِ يَثرِبَ إلَّا فيها رَهْطٌ مِن المُسلِمين يُظهِرون الإسلامَ، ثُمَّ بَعَثَنا اللهُ عَزَّ وجَلَّ، فأتَمَرْنا، واجتَمَعْنا سَبْعون رَجُلًا منَّا، فقُلْنا: حتى متى نَذَرُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يُطرَدُ في جِبالِ مكَّةَ، ويَخافُ، فرَحَلْنا حتى قَدِمْنا عليه في المَوسِمِ، فواعَدْناه شِعْبَ العَقَبةِ، فقال عَمُّه العبَّاسُ: يا ابنَ أخي، إنِّي لا أدْري ما هؤلاء القَومُ الذين جاءوكَ؟ إنِّي ذو مَعْرِفةٍ بأهلِ يَثرِبَ، فاجتَمَعْنا عِندَه مِن رَجُلٍ ورَجُلَينِ، فلمَّا نَظَرَ العبَّاسُ في وُجوهِنا، قال: هؤلاء قَومٌ لا أعْرِفُهم، هؤلاء أحْداثٌ، فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، عَلامَ نُبايِعُكَ؟ قال: تُبايِعوني على السَّمعِ والطاعةِ في النَّشاطِ والكَسَلِ، وعلى النَّفَقةِ في العُسْرِ واليُسْرِ، وعلى الأمْرِ بالمَعْروفِ، والنَّهْيِ عن المُنكَرِ، وعلى أنْ تَقولوا في اللهِ لا تَأخُذُكُم فيه لَومةُ لائِمٍ، وعلى أنْ تَنصُروني إذا قَدِمْتُ يَثرِبَ، فتَمْنَعوني ممَّا تَمنَعون منه أنفُسَكُم وأزْواجَكُم وأبْناءكُم ولكم الجَنَّةُ، فقُمْنا نُبايِعُه، فأخَذَ بِيَدِه أسْعَدُ بنُ زُرارةَ، وهو أصغَرُ السَّبْعين، فقال: رُوَيدًا يا أهلَ يَثرِبَ، إنَّا لم نَضرِبْ إليه أكْبادَ المَطيِّ إلَّا ونحن نَعلَمُ أنَّه رسولُ اللهِ، إنَّ إخْراجَه اليومَ مُفارَقةُ العَرَبِ كافَّةً، وقَتْلُ خيارِكُم، وأنْ تَعَضَّكُم السُّيوفُ، فإمَّا أنتم قَومٌ تَصْبِرون على السُّيوفِ إذا مَسَّتْكُم، وعلى قَتْلِ خيارِكُم، وعلى مُفارَقةِ العَرَبِ كافَّةً، فخُذوه وأجْرُكُم على اللهِ، وإمَّا أنتُم قَومٌ تَخافون مِن أنفُسِكُم خيفةً فذَروه، فهو أعْذَرُ عِندَ اللهِ، قالوا: يا أسْعَدُ بنَ زُرارةَ أمِطْ عنَّا يَدَكَ، فواللهِ لا نَذَرُ هذه البَيعةَ، ولا نَستَقيلُها، فقُمْنا إليه رَجُلًا رَجُلًا يَأخُذُ علينا بشُرْطةِ العبَّاسِ، ويُعْطينا على ذلك الجَنَّةَ[1].

*(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثين)

إشراقة بلاغية بيانية أسلوبية: كم الخبرية التكثيرية: افتتحت الآية بـ (وَكَمْ) لإفادة الكثرة والتهويل والتخويف لمشركي مكة من مصير الأمم البائدة.

الحذف والاتساع اللغوي: في قوله (بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)؛ البطر هو الطغيان عند النعمة. والأصل لغوياً: "بطرت في معيشتها"، فلما حُذف حرف الجر انتصب الاسم على التوسع (المنصوب بنزع الخافض)، مما يشعر بأن المعيشة نفسها تلبست بالبطر، وكأن النعمة غمرتهم حتى صاروا هم وهي شيئاً واحداً في الطغيان.

التصوير الفني والجمال البصري: اسم الإشارة (فَتِلْكَ): إشارة حسية لآثار عاد وثمود والقرى القريبة من طرق تجارة قريش. الاستثناء (إِلَّا قَلِيلًا): تصوير واقعي موحش للمساكن الخاوية التي لا يمر بها إلا المسافر عابر السبيل الذي يستظل بها ساعة ثم يرحل.

---

1 - أخرجه أحمد (14653) واللفظ له، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) (49/6)، وابن حبان (6274)، وقال شعيب الأرناؤوط عن إسناده في تخريج المسند: صحيح.

إشراقة بلاغية: (وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ): تأكيد بضمير الفصل "نحن"، لبيان زوال الملكية البشرية المؤقتة ورجوع كل شيء للمالك الحقيقي الأزلي الأبدي.

يشير ابن القيم – رحمه الله - إلى أن خراب الديار يبدأ من بطر النعمة واستخدامها في معصية المنعم.

ويعزز محمد قطب – رحمه الله - هذا المعنى بأن الأمان المادي الزائف يقود الأمم إلى الغفلة والترف، والترف هو مقدمة الهلاك الكونية للأمم والدول.

*(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - أنّ هذه الآية أصل عظيم في العدل الإلهي؛ حيث لا يعذب الله قوماً إلاّ بعد الإعذار إليهم وإقامة الحجة الرسالية عليهم، مصداقاً لقوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا).

صيغة النفي الشديد الشبيه بكان الشأنية: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ) لنفي الشأن والصلاحية، أي لا يليق بجلاله ورحمته وعدله أن يهلك القرى بغير إنذار.

إشراقة بلاغية: (فِي أُمِّهَا): الأم في اللغة هي الأصل والمقصد. و"أم القرى" هي كبراها وعاصمتها (كمكة ومراكز الحضارة). واختيار بعثة الرسول في العاصمة "الأم" لضمان انتشار الدعوة ووصول الحجة لجميع التوابع والأطراف بيسر وعموم.

الحصر بـ (إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ): الجملة الاسمية بعد "إلاّ" في محل نصب حال مؤكدة. والظلم هنا يشمل الشرك وظلم العباد ببعضهم. فلا يقع الهلاك على الأبرياء، بل يستوجبه الظلم المتأصل في المجتمع.

خاتمة: تأمل كيف ختمت هذه السلسلة المباركة بوضع القاعدة والناموس الكوني للهلاك والعمران. بدأت السلسلة بـ (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) (منتهى اللطف والبيان)، وانتهت بـ (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (منتهى العدل والحسم). وما بين البداية والنهاية تفصيل لنماذج الاستجابة الراقية والاعتذارات البشرية الباطلة. إنها هندسة ربانية في النظم تبرز عظمة القرآن البيانية والإعجازية التي تسلب عقول المتدبرين وأساطين البيان.

*(وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60)أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ

الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(70))

هذا النص القرآني في هذا الدرس من سورة القصص هو ملتقىً بصرياً وعقلياً ووجدانياً هائلاً، ينقل النفس البشرية من أسر المادة الأرضية الفانية إلى سعة الخلود والشهود، عارضاً مشاهد حية تفيض بالحركة، الحوار، والمصير.

*(وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

تأتي هذه الآية في سياق الرد على مبررات قريش لعدم الإيمان؛ إذ قالوا: (إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا). هنا يفكك القرآن "عقدة الخوف على المكاسب المادية". يربط البقاعي في (نظم الدرر) بين هذه الآية والتي قبلها، بأن الله تعالى بيّن لهم أولاً أنه أمّنهم بحرمٍ آمن، ثم يبيّن لهم هنا تفاهة ما يخافون فواته من حطام الدنيا مقارنة بما عند الله.

(وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ): الصيغة بالبناء لما لم يسم فاعله (أوتيتم) لبيان أن المالك الحقيقي والمعطي هو الله، وأنكم لستم صانعي هذا النعيم استقلالاً. ولفظة (من شَيْءٍ) نكرة في سياق الشرط تفيد العموم المطلق؛ أيّاً كان هذا الشيء من مال، أو جاه، أو بنين، فهو تافه في ميزان الحقيقة.

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ)، المتاع: ما يُتمتع به ثم يزول ويُرمى، والزينة: غلاف خارجي لا يمس الجوهر).

هذه الآية لتأكيد "حقيقة الدنيا"؛ كما بيّن ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله - فإن المتاع – وغالباً – يقال متاع الراكب المسافر، يضرب به المثل في القلة - هو مجرد أداة وبلاغ يستعان به على طاعة الله، ومن يغتر بالزينة فهو كالراكب الذي ظن أن المركب هو وطنه الأصلي. التعلق بالدنيا مرض قلبي لا يشفيه إلا استحضار أن "ما عند الله خير وأبقى.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدُّنيا متاعٌ وخيرُ متاعِها المرأةُ الصَّالحةِ [1].

1 - أخرجه مسلم(1467)

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: واللهِ ما الدنيا في الآخرةِ إلا مثلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه في اليمِّ ، فلينظر بم يرجعُ[1].

أمّا الآخرة فوصفت بـ: (خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)، خير: في الكيف والجوهر، وأبقى: في الكم والزمن.

الأبعاد التربوية والسلوكية: يرى ابن القيم – رحمه الله - في الفوائد أنّ هذه الآية ميزان لتصحيح قيم الأشياء في قلب السالك؛ فالدنيا "متاع" يستعين به المسافر، وليست وطناً يستقر فيه.

ويعلق سيد قطب – رحمه الله – (في ظلال القرآن) بلمسته الحركية: «إنها عملية وزن بميزان الحق الشامل.. ميزان القيم الحقيقية لا القيم الزائفة التي تبهر العيون الرامدة.. إنها لمسة للقلب البشري ليفيق من سكرة الطين ويرنو إلى الآفاق».

*(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

الإعجاز البياني والبلاغي: الاستفهام الإنكاري: {أَفَمَن... كَمَن}، استفهام يقسم البشرية إلى فريقين لا يلتقيان، ويحمل في طياته توبيخاً صامتاً للعقل الذي يسوي بين الخالد والزائل، والناجي والمكردس في النار والعياذ بالله.

المقابلة العميقة والالتفات: الفريق الأول: (وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ)، أسند الوعد إلى الله بـ (نا) العظمة، وأكد حصول اللقاء بالفاء التعقيبية والاسمية (فَهُوَ لَاقِيهِ) للدلالة على التحقق والثبوت واليقين المطلق.

أما الفريق الآخر فقال تعالى: (مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ).

لطيفة لسانية: استخدام لفظ (الْمُحْضَرِينَ)؛ فالإحضار في لغة العرب لا يستعمل إلاّ في سياق الجلب كرهاً وقسراً (كإحضار المتهمين للمحاكمة)، ولم يقل "آتٍ" أو "قادم"، مما يوحي بالذل والانكسار.

يؤكد ابن تيمية – رحمه الله - أنّ لذة الموعود بالجنة معجلة في الدنيا باليقين والرضا والسكينة، بينما لذة الممتع بالدنيا يعقبها وحشة وحسرة. فالأول يعيش وعداً يراه بقلبه ويعيش بدايات موعوده في الدنيا، والآخر يعيش متاعاً يزول من بين يديه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الْكافرِ[2].

---

1 - ابن حجر: فتح الباري (ج11/ص236)، وأخرجه مسلم (2858) باختلاف يسير.
2 - أخرجه مسلم (2956)، والترمذي (2324).

*(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)، إشراقة بلاغية في جمال العرض: يبدأ هنا عرض المشهد الأخروي حياً متحركاً، حيث تستخدم الآية أسلوباً حوارياً تهكميّاً يُنقل القارئ من دائرة التجريد العقلي في الآيتين السابقتين إلى معترك المشهد الحي.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ): حذف الفاعل للعلم به، ولإضفاء مهابة وجلال على النداء الذي يملأ الأركان.

ثم تهكم وتقريع: (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)؛ الإضافة هنا (شُرَكَائِيَ) إضافة تهكمية بأقوالهم هم، وجاء الفعل {تَزْعُمُونَ} ليقطع بأن شقاقهم ومذهبهم لم يكن علماً بل زيفاً وتخرصاً.

يذكر البغوي في تفسيره أن هذا السؤال ليس للاستعلام (فالله عليم بكل شيء)، وإنما هو سؤال توبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد لتفجيعهم وتفزيعهم في ذلك اليوم العصيب.

*(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ): لم يسمّهم بأسمائهم (شياطين الإنس والجن، أو كبراء الشرك)، بل وصفهم بالوصف المرعب الذي يحدد مصيرهم سلفاً (حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)، أي: وجب عليهم العذاب.

تكرار الاشتقاق (الجناس والالتفات اللفظي): (أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)؛ تشابهت الحروف وتشابكت الجريرة. يقولون: "أغويناهم بدافع ذاتي فينا، تماماً كما غوينا نحن من قبل بغير إكراه".

بلاغة التبرؤ: (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ). تقديم الضمير المنفصل الحصري (إِيَّانَا) على الفعل يوضح تبرؤهم من أن يكونوا معبودين حقيقيين برضاهم، أو أنهم ينفون أن تكون هذه العبادة قد وصلت إليهم أو أفادتهم شيئاً.

الأبعاد النفسية والتربوية: يقف محمد قطب في دراساته للنفس البشرية عند هذا المشهد مبيناً سقوط "أقنعة الولاءات الزائفة". إن التابع والمتبوع في الدنيا يشكلان جبهة واحدة ضد الحق، لكن بمجرد مواجهة الحقيقة المطلقة، تظهر الأنانية المحضة، ويتبرأ كل غاوٍ ممن أغواه في رعب نفسي رهيب.

*(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}

الإيجاز البلاغي وسرعة التعقيب: (فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لهم): الفاء حرف عطف يفيد الترتيب والتعقيب السريع. هناك فزع وخوف يدفعهم للمحاولة البائسة فوراً، لكن الفاء الثانية (فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا) تأتي كصفعة الخيبة الفورية بلا أدنى تراخٍ.

رؤية العذاب: (وَرَأَوُا الْعَذَابَ)؛ تَعْبير حسي يجسد المعنى النفسي. لقد رأوا مصيرهم رأي العين، فخرست الألسن وبُهتت العقول.

جملة التمني المبتورة: (لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}؛ حذف جواب (لو) للتهويل وتفخيم الأمر، والتقدير: "لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لما شقوا هذا الشقاء، ولما وقعوا في هذا الهوان".

*(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ): في الآية والنداء سابقة، كان السؤال عن "التوحيد" وعلاقتهم بالأنداد والشركاء (أَيْنَ شُرَكَائِيَ).

أما هنا فينتقل السؤال إلى "الرسالة" وموقفهم من الأنبياء (مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرَجْنا معَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ في جِنازةِ رجلٍ منَ الأنصارِ، فانتَهينا إلى القبرِ ولمَّا يُلحَدْ، فجلسَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ وجَلَسنا حولَهُ كأنَّما على رءوسِنا الطَّيرُ، وفي يدِهِ عودٌ ينْكتُ بِهِ في الأرضِ، فرفعَ رأسَهُ، فقالَ: استَعيذوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ مرَّتينِ، أو ثلاثًا، زادَ في حديثِ جريرٍ هاهنا وقالَ: وإنَّهُ ليسمَعُ خفقَ نعالِهم إذا ولَّوا مدبرينَ حينَ يقالُ لَهُ: يا هذا، مَن ربُّكَ وما دينُكَ ومن نبيُّكَ ؟ قالَ هنَّادٌ: قالَ: ويأتيهِ ملَكانِ فيُجلِسانِهِ فيقولانِ لَهُ: مَن ربُّكَ ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللَّهُ، فيقولانِ: ما دينُكَ ؟ فيقولُ: دينيَ الإسلامُ، فيقولانِ لَهُ: ما هذا الرَّجلُ الَّذي بُعِثَ فيكم ؟ قالَ: فيقولُ: هوَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ، فيقولانِ: وما يُدريكَ ؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللَّهِ فآمنتُ بِهِ وصدَّقتُ زادَ في حديثِ جريرٍ فذلِكَ قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ يُثبِّتُ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا فينادي منادٍ منَ السَّماءِ: أن قَد صدقَ عَبدي، فأفرِشوهُ منَ الجنَّةِ، وافتَحوا لَهُ بابًا إلى الجنَّةِ، وألبسوهُ منَ الجنَّةِ قالَ: فيأتيهِ من رَوحِها وطيبِها قالَ: ويُفتَحُ لَهُ فيها مدَّ بصرِهِ قالَ: وإنَّ الْكافرَ فذَكرَ موتَهُ قالَ: وتعادُ روحُهُ في جسدِهِ، وياتيهِ ملَكانِ فيُجلسانِهِ فيقولانِ: من ربُّكَ ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ لَهُ: ما دينُكَ ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ: ما هذا الرَّجلُ الَّذي بُعِثَ فيكُم ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، فُينادي منادٍ منَ السَّماءِ: أن كذَبَ، فأفرشوهُ منَ النَّارِ، وألبِسوهُ منَ النَّارِ، وافتَحوا لَهُ بابًا إلى النَّارِ قالَ: فيأتيهِ من حرِّها وسمومِها قالَ: ويضيَّقُ عليْهِ قبرُهُ حتَّى تختلِفَ فيهِ أضلاعُهُ زادَ في حديثِ جريرٍ قالَ: ثمَّ يقيَّضُ لَهُ أعمى أبْكَمُ معَهُ مِرزبَةٌ من حديدٍ لو ضُرِبَ بِها جبلٌ لصارَ ترابًا قالَ: فيضربُهُ بِها

ضربةً يسمَعُها ما بينَ المشرقِ والمغربِ إلَّا الثَّقلينِ فيَصيرُ ترابًا قالَ: ثمَّ تعادُ فيهِ الرُّوحُ[1].

يرى البقاعي – رحمه الله - أنّ هذا هو الترتيب المنطقي للمحاكمة العادلة الإلهية: يسألون أولاً عن أصل العقيدة (الله والشركاء)، ثم يسألون ثانياً عن واسطة الهداية وموقفهم منها (الرسل).

صيغة الاستفهام بـ (مَاذَا) بدلاً من "بمَ" تضفي عمقاً واستقصاءً؛ كأنه يسألهم عن تفاصيل الجواب وهيئته ونوعه، وهل كان الجواب تكذيباً، أم استهزاءً، أم إعراضاً؟

*(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)، هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية: (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ): من روائع المجاز القرآني البديع. الأصل أن يَعْمى "الإنسان" عن الأنباء، لكن القرآن هنا قلب الفاعل والمفعول مجازاً عقلياً واستعارة مكنية، فجعل "الأنباء والأخبار" هي التي عميت وضلّت طريقها إليهم فلم تجد لقلوبهم سبيلاً!

(فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ): الفاء سببية؛ وبسبب هذا العمى المطلق وانقطاع الحجج، خيم عليهم الصمت الرهيب، فلا يسأل بعضهم بعضاً لشدة الذهول، أو لفقدان الأمل في أي جواب ينجي.

البعد السلوكي: يشير ابن القيم – رحمه الله - إلى أن هذا "العمى" هو العقوبة العادلة والمطابقة لجنس عملهم في الدنيا؛ فلما أعْموا قلوبهم وأبصارهم عن آيات الله المرسلة، عميت عليهم الحجج والأنباء يوم القيامة، فلم يجدوا كلمة واحدة ينطقون بها اعتذاراً.

*(فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ): جمالية التدرج والتطمين الإلهي: بعد جو الخوف المزلزل والمحاكمة الرهيبة، ينفسح أفق الرحمة الإلهية ليربت على قلوب السامعين في الدنيا.

شروط الفلاح ثلاثة: (تَابَ): التخلي عن الماضي المظلم (الشرك والمعصية).

(وآمَنَ): التحلي بالإيمان الصادق والاعتقاد الصحيح، (وَعَمِلَ صَالِحًا): تصديق الإيمان بالعمل والواقع التطبيقي.

سر (عَسَىٰ) البلاغي: "عسى" من الله واجبة ومحققة الوقوع؛ لأن الكريم إذا أطمع أحداً بلغة الرجاء فقد أوجب على نفسه نواله. وعلق ابن عاشور – رحمه الله 0

1 - أخرجه أبو داود (4753) واللفظ له، والنسائي (2001)، وابن ماجه (1549) مختصراً، وأحمد (18557) باختلاف يسير، وصححه الألباني، وأخرجه البخاري (1369)، ومسلم (2871) مختصرا.

بأن اختيار أسلوب الرجاء هنا ليبقى العبد معلقاً بين الخوف والرجاء، فلا يتكل ولا ييأس.

*(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أصل عظيم من أصول العقيدة ينبثق من هذه الآية. يقرر ابن تيمية – رحمه الله - في الفتاوى أن التدبير والخلق والاختيار لله وحده؛ فالخلق راجع إلى ربوبيته وقدرته، والاختيار والاصطفاء راجع إلى إلهيته وحكمته.

(مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ): (ما) هنا نافية (أي ليس للعباد حق الاختيار والتشريع والتحكم المطلق مع الله)، نزلت هذه الآيات جواباً للمشركين حين قالوا: (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف:31]، يعنون: الوليد بن المغيرة، أو عروة بن مسعود الثقفي، أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم [1]. وكان جوابهم في سورة الزخرف كذلك: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [الزخرف:32].

التنزيه والختام: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ): تسبيح وتنزيه يعقب إثبات انفراد الله بالخلق والاصطفاء؛ فإشراك غيره معه في التشريع أو التدبير أو العبادة هو تطاول على مقام الإلهية والربوبية.

*(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)، إعجاز التقديم والتأخير وعلم الغيب:

(مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ): قدّم الله سبحانه وتعالى ما تُكنّ الصدور وتخفيه على ما يُعلنونه؛ لأن إحاطة العلم بالخفي أبلغ وأدل على عظمة الإله وقدرته. وإذا كان يعلم الخفايا المطمورة في حنايا القلوب، فعلمه بالظاهر المعلن من باب أولى.

البعد التربوي: يرى ابن القيم – رحمه الله - أنّ هذه الآية تبعث في قلب المؤمن مراقبة ذاتية صارمة؛ فالإنسان يبدأ في تصفية باطنه ونياته وخلجات صدره لعلمه أنّ عين الرب مطلعة على أدق التفاصيل التي يعجز البشر عن كشفها.

*(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن) (ص904).

جلال الخاتمة وجمال التقسيم: تأتي هذه الآية كمسك الختام والتاج اللفظي والعقدي لهذه المجموعة من الآيات، بمثابة تلخيص وإعلان السيادة المطلقة لله سبحانه وتعالى.

(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ): تقرير للتوحيد الخالص، لا شريك له في الخلق ولا في الحكم.

الثنائيات البديعة: (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ): الحمد في الأولى على نعمة الخلق والرزق والهداية، والحمد في الآخرة على نعمة النجاة والنعيم المقيم والعدل.

(وَلَهُ الْحُكْمُ): الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي التكليفي، والحكم الجزائي الأخروي.

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ): قفلة الآية وصيغتها تؤكدان النهاية والمصير الإنساني الحتمي، فلا مهرب ولا ملجأ منه إلا إليه.

خلاصة: هذه العشر آيات ترفع وعي المؤمن من مستنقع الركود المادي الأرضي وضيق الحسابات الدنيوية الفانية، وتعرج به في آفاق الشهود والمحاكمة الأخروية الكاشفة لزيف الشرك والأنداد، لتستقر به أخيراً في رحاب الطمأنينة الإيمانية، معترفةً لله تعالى بالخلق، والاختيار، والحمد، والحكم المطلق في الأولى والآخرة.

*(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75) ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(77))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة القصص إنما هي انعطافةً شعوريةً وفكريةً هائلة في السياق القرآني؛ إذ تنتقل بالنفس البشرية من آفاق الكون الفسيح، ودلائل ربوبيته الظاهرة في تعاقب الليل والنهار، إلى النفس الإنسانية وتقلباتها في حلبة الحياة وموقفها من نعم الله وآثارها (مُمثَّلةً في قصة قارون).

*﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾

يُبين البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ هذه الآية تأتي رداً على كبر المشركين وعنادهم، وتوجيهاً للأنظار إلى القهر الإلهي المطلق الذي لا يملك أحدٌ دفعَه، فبعد أن تحدّث السياق السابق عن عجز الشركاء، جاء هذا التحدي الكوني المباشر لتسفيه عقولهم وتبيان عجزهم الذاتي.

(قل أرأيتم): صيغة استفهامية تُثير الانتباه وتهيئ العقل لتلقي الحقيقة الكبرى. "الرؤية" هنا علمية قلبية وعينية بصرية في آن واحد، أي: أخبروني يا أهل مكة.

(سرمداً): دائم الاتصال، لا ينقطع. واستخدامها هنا يجسد الرعب والوحشة؛ ليلٌ بلا فجر، ظلامٌ ممتد إلى قيام الساعة.

إشراقة بلاغية في الالتفات والتقديم: تقديم "عليكم" على المفعول الثاني "سرمداً" يفيد الاختصاص، ويصور كأن هذا الليل المطبق ثقلٌ هائل جاثمٌ على صدورهم وحدهم.

في قوله: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾، لم يقل "بنهار"؛ لأن الضياء هو جوهر النهار وعماده، وهو كافٍ لإنهاء ظلمة الليل ووحشته. وفي تنكير "ضياء" إشارة إلى التعظيم والمنفعة الشاملة لأي قدر من الضياء يرفع غمة الظلمة.

خاتمة الآية ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: اختار السمع هنا لأن الليل مظنة السمع لا البصر؛ فالإنسان في الليل يعتمد على أذنه لتعذر الرؤية، ولأن الكلام عن "الضياء" المفقود، فإذا عُدِم الضياء لم يبقَ إلا السمع وسيلةً للإدراك، والمراد سماع فهم وقبول.

علّق سيد قطب - رحمه الله -: "إنها هزة للوجدان البشري الراكد، الذي يألف النعم حتى لا يعود يحسّ بوجودها! تخيّل هذا الكوكب الأرضي يدور وقد حُكم عليه بالظلمة السرمدية، برودة تقتل الحياة، وصمت يلف الوجود، ووحشة تأكل النفوس. أين هي آلهتكم المزعومة لتأتي بشعاع واحد من النور؟"

*﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

إشراقة في بلاغة التقابل: هنا يحدث التقابل البديع (المقابلة) بين الآيتين. ففي الأولى: (الليل ← ضياء ← أفلا تسمعون)، وفي الثانية: (النهار ← ليل تسكنون فيه ← أفلا تبصرون).

وصف الليل بـ ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ ولم يصف الضياء بوصف مماثل؛ لأن السكن بالليل حاجة بيولوجية ونفسية ملحة لا تستقيم حياة الكائنات بدونها، فالنهار السرمدي يعني حركة بلا هدوء، واحتراقاً مستمراً للأعصاب والطاقات.

أمّا الفاصلة القرآنية ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: فلأن النهار هو مجلى البصر وميدان الرؤية، فناسب ختم الآية بالحث على الإبصار والنظر في ملكوت الله الذي يتجلى بوضوح في الضوء، أي: أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ.

يُشير محمد قطب – رحمه الله- في نظراته حول المنهج التربوي للقرآن إلى أن التنويع بين السمع والبصر في الآيتين يخاطب منافذ الوعي الإنساني كلها. النهار يوقظ البصر ليرى آيات الله في حركة الحياة، والليل يهيئ السمع والوجدان للتدبر الهادئ.

*﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾: تقديم الجار والمجرور لتأكيد الامتنان وتخصيص المصدر؛ فتقلب الليل والنهار ليس مجرد ناموس فيزيائي جاف، بل هو في أصله "رحمة" إلهية فائضة.

اللف والنشر المرتب: "الليل" يقابله "لتسكنوا فيه"، و"النهار" يقابله "ولتبتغوا من فضله".

وجاء الختام بـ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ جامعاً للاثنين؛ فالشكر يكون على نعمة الراحة (السكون) ونعمة الرزق (الابتغاء).

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - أنّ العبادة قائمة على توازن الروح والجسد. فالليل سكنٌ للروح والبدن للقيام بحق الله وحق النفس، والنهار حركةٌ لطلب المعاش وتعمير الأرض بالعدل. والشكر هو الغاية التي تُربط بها النعم، فمَن استعمل السكون والابتغاء في معصية المنعم فقد كفر النعمة وحرّف الحكمة من خلقها.

*﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: ينتقل السياق فجأة من هدوء الكون ورحمته إلى صخب الحساب وعنفوان المشهد الأخروي.

﴿يُنَادِيهِمْ﴾: الفعل المضارع هنا لاستحضار الصورة وتصوير المشهد كأنه يقع الآن أمام الأعين. والنداء يدل على العلن والفضيحة على رؤوس الأشهاد.

إضافة الشركاء بياء المتكلم ﴿شُرَكَائِيَ﴾: توبيخ وتقريع شديد؛ فالإضافة هنا للتهكم بزعمهم وتكذيب دعواهم، كأنه يقول: "أين الذين جعلتموهم لي شركاء؟!".

﴿تَزْعُمُونَ﴾: حذف مفعولَي "تزعمون" (أي: تزعمونهم شركاء) للدلالة على تهافت هذا الزعم وبطلانه كلياً، فالزعم لا حقيقة له وراء ظنونهم الكاذبة.

*﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾: "النزع" فيه معنى الجذب بقوة وشدة. قال البغوي – رحمه الله -: النزع هنا يعني استخراج الشهيد (وهو النبي أو الرسول) من بين أمته ليمتاز عنهم ويشهد عليهم بتبليغ الرسالة وبكفرهم، كما قال تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا) [النساء:41].

﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: طلب الحجة والبرهان بأن مع الله شريك، في موطن لا حجة فيه يُسمى في البلاغة "تحدي الإعجاز والتعجيز".

﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ) التوحيد (لِلَّهِ﴾: تحول إنكارهم في الدنيا إلى "علم يقيني" في الآخرة، ولكنه علم اضطرار لا ينفع صاحبه. والتعريف في "الحق" للجنس والاستغراق، أي كل حق في الوجود هو لله وحده.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾: ضلّ هنا بمعنى غاب وتلاشى وضاع. افتراءاتهم وآلهتهم المزعومة في الدنيا تخلت عنهم في أحرج المواقف.

*﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

يوضح البقاعي – رحمه الله - حكمة الانتقال من آيات الكون والحساب إلى قصة قارون:

لما ذكر الله تفضله بنعمتي الليل والنهار، وذكر شكرهما بالعبادة، ضرب مثلاً لمن آتاه الله الفضل والنعمة الدنيوية العظيمة، فلم يشكر بل بغى واستكبر، فحقّ عليه العذاب.

إشراقة بلاغية خارقة: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: البغي هو التجاوز والظلم. وجاء حرف الفاء التعقيبية ليدل على أن البغي كان نتيجة مباشرة وسريعة لحصوله على الثروة، وهو تصوير للضعف البشري أمام فتنة المال.

وقوله تعالى: (كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ) قيل ابن عم موسى عليه السلام، (فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) قيل: كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم ويظلمهم، قال قتادة: بغى عليهم بكثرة المال.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾: مفاتح: جمع مفتح، وهو الذي يفتح به الباب، وهو قول قتادة ومجاهد وجماعة.

(تنوء بـ) أي تُثقل الحامل حتى يميل من ثقلها. وفي لسان العرب: "ناء به الحمل" أي أثقله وأماله، تميل بهم إذا حملوها لثقلها.

وأمّا "العصبة": فهي الجماعة من الرجال (من عشرة إلى أربعين) المتماسكون كالعصب، وقوله: "أولي القوة": صفة تزيد العصبة شدة وقوة.

إشراقة بلاغية: إذا كانت مفاتيح الكنوز (وهي مجرد وسائل لفتح الخزائن) تُجهد وتثقل الجماعة القوية من الرجال، فكيف بالكنوز نفسها؟! هذا إيجاز قصر وتصوير فني قمة في الروعة والبيان يعكس ضخامة الثروة بشكل ملموس.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾: يُفصل ابن القيم – رحمه الله - في (مدارج السالكين) حقيقة هذا الفرح المنهي عنه: "الفرح المذموم هنا هو فرح البَطَر، والكبر، والخيلاء، والاطمئنان إلى الدنيا والرضا بها والغفلة عن الآخرة. أما الفرح بفضل الله ورحمته ومحبته فمأمور به ومحمود لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:58]".

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

هذه الآية الكريمة هي الدستور القرآني الخالد للتوازن الإنساني في التعامل مع المادة والروح.

1. البنية التقسيمية والأسلوبية (خمس وصايا ذهبية):

الوصية	التوجيه البلاغي التربوي
وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ	(فيما آتاك الله) فيها تذكير بالمنعم الحقيقي سبحانه، لتكسير كبرياء النفس، والابتغاء: يعني السعي الحثيث، فالدنيا مطية ووسيلة للوصول للآخرة، والمال وسيلة للإنفاق والخير، وليس غاية في ذاته، فابتغ به ما عند الله، ثوابه ورضاه وجنته.
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ	يشير ابن عاشور – رحمه الله - إلى لطيفة بلاغية هنا: حيث جاء التعبير ب، (ولا تنس) بدل (خذ) أو غيره من البدائل، لأنّ الأصل في المؤمن المقبل على الآخرة أنه قد يسنى أو يزهد بالكلية ويغفل عن حظه المباح من مطاعم وملابس ومتاع حلال، فجاءت الآية لتأمر بالتوازن وعدم حرمان النفس مما أحل الله، مع البقاء في دائرة الاعتدال.
وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ	الكاف للتعليل والتشبيه بالقدوة العليا، الإحسان يقابل بالإحسان، وبما أنّ إحسان الله إليك كان بلا حدود، فليكن إحسانك لعباده واسعا بلا شروط ولا منّ
وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ	تحذير من استخدام المال والجاه في الطغيان والظلم، وتخريب الفطرة، وتعبيد الناس لغير الله.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ	تذييل تعليلي بليغ: فمن حرم محبة الله حرم من كل خير، وصار مآله الخسران والدمار، وهو ما حصل لقارون لاحقاً

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لرجلٍ وهو يَعِظُه : اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ : شبابَك قبل هَرَمِك، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك، وغناك قبل فقرِك، وفراغَك قبل شُغلِك، وحياتَك قبل موتِك[1]..

"هذا هو المنهج الإلهي المتوازن الذي يربط الأرض بالسماء، والجسد بالروح. الإسلام لا يحارب الثروة، ولا يفرض الفقر، ولا يطلب من الإنسان الخروج من الحياة وترك طيباتها. بل يطلب منه أن يقود هذه الثروة بروحه لا بشهوته، وأن يجعل يده هي التي تمسك بالمال لا قلبه، ليكون المال خادماً لعمران الأرض وبناء الدار الآخرة."

*(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(82))

هذه الآيات الكريمات في الدرس قبل الأخير من سورة القصص هي ذروة الإعجاز البياني والسياقي في تصوير مشهد الفتنة بالمال والجاه، ثم مصير البغي والاستعلاء، وصولاً إلى التعقيب العقدي والتربوي الذي يضع الموازين الحقيقية للوجود.

*(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

هذه الآية تأتي رداً على نصائح قوم قارون الصالحين له في الآيات السابقة ({لَا تَفْرَحْ}، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ}). فلما ذكّروه بالمنعم، انقطع عن المشهد الإلهي

1 - أخرجه ابن أبي الدنيا في ((قصر الأمل)) (111) واللفظ له، والحاكم (7846)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (10248) باختلاف يسير، وقال المنذري في الترغيب: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما

تماماً، ونسب النعمة لنفسه عتواً واستكباراً، رابطاً بين العطاء المادي والأفضلية الذاتية.

(قَالَ) يعني قارون، (إِنَّمَا): تفيد الحصر والقصر المقترن بالتبجح؛ أي: لا دخل لادعائكم، بل انحصر سبب إيتائي هذا المال على فضل وخير علمه الله عندي، فرآني أهلا لذلك، ففضلني بهذا المال عليكم، كما فضلني بغيره، وهذا بناء على أنّ قوله تعالى (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ) إي: عنده شيء من إيمان بالله.

وقيل: (عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي) أي: بالتصرف في التجارات، والزراعات، وأنواع المكاسب.

البناء لما لم يسم فاعله (أُوتِيتُهُ): لم يقل "آتانيه الله"، تهرباً من الاعتراف بالمنعم، وتوجيهاً للذهن نحو "الذات" التي تستحق هذا الإيتاء.

تنكير (عِلْمٍ): تنكير للتعظيم والتميز، أي: "علم خاص بي لا يشركني فيه أحد"، وقيل هو علم التجارة والكيمياء، أو علم التوراة.

أمّا ظرفية الاختصاص (عِندِي): في تأكيد للأنانية والاستعلاء اللفظي، وقطع للصلة مع أي مصدر خارجي.

يركز ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - على أنّ مقولة قارون هي طبع كل "مستكبر بالنعمة" يرى أن عطاء الله له دليل على محبة الله ورضاه عنه، أو استحقاقه الذاتي. يقول ابن القيم في الفوائد: "هذا هو الشرك الخفي، أن يشهد العبد نفسه وعلمه في تحصيل النعمة ويغيب عن مشهد المنة والفضل".

وقد ذم ابن القيم – رحمه الله - طغيان أنا ولي وعندي، فقال: «وليحذر كل الحذر من طغيان " أنا "، " ولي "، " وعندي "، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس، وفرعون، وقارون، ف (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) لإبليس، و {إلى مُلْكُ مِصْرَ} لفرعون، و {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى} لقارون. وأحسنُ ما وضعت " أنا " في قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف ونحوه. " ولي "، في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقرُ والذل: " وعندي " في قوله: " اغفر لي جدي، وهزلي، وخطئي، وعمدي، وكل ذلك عندي» [1].

أمّا سيد قطب – رحمه الله -: فيصور (في ظلال القرآن) هذه النفسية المريضة التي تعميها الثروة: "إنها وقفة الغرور البشري الذي ينسى مصدر النعمة... يرى المال ثمرة جهده وعبقريته، فينفصل عن الله، وعندئذٍ يتحول المال من نعمة إلى لعنة".

1 - انظر ابن القيم: زاد المعاد (ج2/ص434-435).

فيأتيه الرد الصارم (أَوَلَمْ يَعْلَمْ...): الاستفهام الإنكاري (أَوَلَمْ): توبيخ شديد يضرب علم قارون المدعى في مقتل؛ فلو كان صاحب "علم" حقيقي لعلم سنن التاريخ ومصارع الغابرين.

المقارنة المهلكة (أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا): تفكيك لركيزتي طغيان قارون (القوة الذاتية، وجمع المال).

الجملة الختامية (وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ): وقفة بلاغية مخيفة؛ فالإعراض عن سؤالهم ليس لجهل بحالهم، بل لإهانتهم واستحقاقهم العقوبة الفورية دون جدال أو محاكمة تليق بكرامة إنسانية، فهم أحقر من أن يُسألوا سؤال استيضاح.

قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال، وقال الحسن: لا يسألون سؤال استعلام، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

*(فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[مشهد الخروج الاستعراضي ، فانقسم الناس فريقين:

الذين يريدون الحياة الدنيا نظروا إلى الزينة كغاية	الذين أوتوا العلم نظروا إلى المصير والحقيقة
المعيار: المادة والظاهر	المعيار: ثواب الله والدار الآخرة
النتيجة: حسرة وتمني	النتيجة: ثبات ويقين

فاء التعقيب (فَخَرَجَ): تدل على سرعة ترجمة الاستكبار الداخلي إلى سلوك خارجي عملي. لم يصبر، بل دفعه غروره للتحدي الميداني.

التنكير والتعميم في (فِي زِينَتِهِ): (في) للظرف كأن الزينة أصبحت وعاءً له تحيط به من كل جانب، والملابس والخدم جعل المشهد فضفاضاً هائلاً يتخيله المتلقي بأقصى صور الأبهة والفخامة.

التقسيم النفسي للمجتمع: تقسم الآية المجتمع ببراعة إلى فئتين بناءً على "عمق الرؤية وزاويتها".

الفئة الأولى: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}: عبّر بـ "يريدون" بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار في التعلق بالطين.

التمني الحسير (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ): هذا قمة السقوط النفسي أمام بريق المادة.

حكمهم السطحي (إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ): قصروا "الحظ العظيم" على المتعة الزائلة.

يشير الأستاذ محمد قطب – رحمه الله - في طروحاته المنهجية إلى أن "فتنة الزينة" هي السلاح الأمضى لقوى البغي؛ لأنها تصنع "الاستخفاف" بالعامة، فتبهر أبصارهم ليتنازلوا عن قيمهم طمعاً في محاكاة الطاغية المترَف.

الفئة الثانية: *(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

إشراقة بلاغية وبيانية: بناء "أُوتُوا" لما لم يسم فاعله: في مقابل ادعاء قارون (أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)، جاء العلم الحقيقي مضافاً فاعله إلى ما لم يسم فاعله لفظاً، المعلوم حقيقة (وهو الله)، ليدل على أن العلم هبة ربانية، وليس كسباً ذاتياً محضاً يُتبجح به.

ثم الرد الردعي الحاسم (وَيْلَكُمْ): كلمة زجر وتنبيه قاسية، تهدف إلى إيقاظ القلوب المخدرة ببريق الذهب والفضة.

صيغة التفضيل (ثواب الله خَيْرٌ): مقارنة لإقناع المفتونين بلغة الحساب والربح والخسارة التي يفهمونها؛ فثواب الله خير بالذات، وأبقى بالزمن.

ينبه ابن عاشور -رحمه الله – في (التحرير والتنوير): إلى أنّ العلم المعتبر هنا ليس علم الأرقام أو المادة، بل هو العلم بالله وبحقائق الوجود وسننه. والعلم الحقيقي هو الذي يعصم صاحبه من الاهتزاز أمام الفتن المادية.

أمّا البقاعي – رحمه الله - فيربط بين خاتمة الآية (وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) وبين الصبر؛ فمقاومة إغراء المادة وسحر الجاه يحتاج إلى "صبر نفسي" هائل، لا يوفق إليه إلاّ من صبّر نفسه على الطاعة وعن المعصية وعن فتنة الدنيا.

كما أنّ ابن القيم – رحمه الله - يرى في قوله (وَلَا يُلَقَّاهَا) (أي الجنة، أو هذه الكلمة والموقف الإيماني) دليلاً على شرف الصبر، فالإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، والصبر هنا هو كبح جماح النفس عن التطلع والتهافت على زينة الدنيا.

*(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ)

1 إشراقة بلاغية في لاتصوير الحركي: ينقلنا سيد قطب هنا إلى مسرح المفاجأة الإلهية الخاطفة:

"في ومضة عين، وفي جملة قصيرة حاسمة، يزول هذا كله: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)... إن الأرض التي مشى عليها مختالاً، والتي ظن أنه يملك ناصيتها بذهبه،

انفتحت لتبلعه وتبلع داره وزينته وقصوره. الحركة سريعة، خاطفة، مروعة، ليس فيها تمهيد، لتتناسب مع فجاءة الكارثة على المستكبر ومحبيه".

الفاء العاطفة (فَخَسَفْنَا): الفاء تفيد الترتيب والتعقيب المباشر. بمجرد أن تكاملت فتنة الزينة وبلغت القلوب الحناجر، جاء الأمر الإلهي لينهي اللعبة بضربة واحدة كاسحة.

الباء في (بِهِ وَبِدَارِهِ): باء المصاحبة، أي ابتلعته الأرض هو وماله وقصوره ككتلة واحدة حقيرة لا قيمة لها.

ثم كان النفي القاطع (فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ...): تأكيد النفي بـ (مِن): الاستغراقية، أي لا ناصر له أبداً، لا حراس، لا خدم، لا شركاء.

(وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ): سلب عنه حتى القدرة الذاتية على الدفع والانتصار لنفسه، فجمع بين خسران الناصر الخارجي وعجز القوة الذاتية.

*(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ...)، إشراقة بلاغية: اسم الزمان (الْأَمْسِ): يعكس التحول الرهيب والسريع في المشاعر؛ فلم تمر دهور، بل هو زمن يسير جداً ("الأمس") كان كافياً لتتبدل الرغبات العارمة إلى رعب وحمد على النجاة.

اسم الفعل (وَيْكَأَنَّ): كلمة تعجب وتندم وصحوة من الغفلة. حللها اللغويون والمفسرون (كالبغوي) بأنها مركبة من "وي" (كلمة تعجب) و"كأن" المشبهة المؤكدة، ومعناها: "ألم ترَ أن..." أو "أعجب لخفي أمر الله كيف يظهر"، وقيل كلمة التعجب هي (ويك)، يمعنى: ويحك. والله أعلم.

المقابلة البديعية بين (يَبْسُطُ) و (يَقْدِرُ): إدراك القانون الحقيقي لتوزيع الأرزاق؛ فالرزق ليس دليلاً على الكرامة (البسط)، والتضييق ليس دليلاً على المهانة (القدر)، بل هو محض مشيئة وحكمة إلهية وابتلاء.

يركز سيد ومحمد قطب – رحمهما الله - على "صحوة الوعي" لدى الجماهير المفتونة. إن سقوط الطغاة المادي هو العلاج الوحيد والصدمة الضرورية لإيقاظ الفطرة الإنسانية التي خدرتها المظاهر.

(لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا): تحول إيماني عميق؛ فالذي كان بالأمس مبعث حسرة وحرمان ("يا ليت لنا")، صار اليوم مبعث حمد ومنة ("منّ الله علينا" بالمنع والتحصين). المنع هنا كان عين العطاء والرحمة.

*(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(84))إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (85) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ

إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(88))

هذه الآيات الكريمة هي الدرس الأخير من سورة القصص، وهي مسك الختام من سورة القصص، وهي سورة عُنيت بمواجهة الطغيان المادي والسياسي. فبعد أن استعرضت السورة عُلوّ فرعون السياسي وسقوطه، ثم عُلوّ قارون المالي وخسوف الأرض به وبداره، تنعطف الآيات لتقعيد القاعدة الكونية الكبرى: الميزان الحقيقي ليس ميزان القوى الأرضية، بل ميزان الدار الآخرة.

لما أهلك الله سبحانه وتعالى من أراد العلو والفساد بماله (قارون)، وخسف به وبداره أتبع ذلك بالحكم العام، فقال معظماً لدار الآخرة تلك الدار الدائمة، بينما يرى ابن عاشور في التحرير والتنوير أن هذا الختام جاء لتثبيت النبي ﷺ والمؤمنين المسحوقين في مكة، والتوطئة للهجرة، وإعلان انتهاء الطغيان وبداية التمكين الأخلاقي.

*(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

بعد مشهد الخسوف بقارون الذي تمنى الجهلة مكانه وبداره، يرفع الله في قرآنه الأنظار إلى النعيم الحقيقي (الدار الآخرة): "أي: الجنة، نعلّقها ونصفيها للذين لا يطلبون كبراً وتعاظماً في الأرض". ويشير سيد قطب (في ظلال القرآن) إلى أن الرغبة في العلو والفساد هي أصل الداء الذي دمر فرعون وقارون، والآخرة لا تفتح أبوابها لمن تلوثت نفسه بنزعة الاستعلاء على خلق الله.

إشراقة بلاغية وبيانية: اسم الإشارة (تِلْكَ): استُعمل للبعيد المفردة المؤنثة لتعظيم الدار الآخرة ورفع مكانتها، فهي في أفق سامٍ لا يناله إلا من اتصف بصفات خاصة: (لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

صيغة القصر والتخصيص: جعل الدار (لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ) فيه تعريض مبطن بمن سار على نهج فرعون وقارون، وقصر حقيقي لوراثة النعيم على أهل التواضع الصادق.

يوضح ابن القيم – رحمه الله - في الفوائد نكتة لغوية ونفسية دقيقة؛ القرآن لم يقل "لا يعلون"، بل قال: لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا. فنفى "الإرادة" والميل القلبي للاستعلاء، لأن صلاح الجوارح يبدأ من خلو الإرادة من الاستكبار. وعقّب شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - بأن العلو في الأرض هو أصل الشر، وصاحبه يطلب الخُيلاء والفخر، والفساد يتبع العلو تلقائياً.

التذييل: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام، لتسكين روع المستضعفين بأن المآل الأخير مجعول لهم حتماً.

*(مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

يوضح الله تعالى طريقة التعامل والمحاسبة في هذه الدار الآخرة المذكورة آنفاً، ليبرز كرمه وعدله.

عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ" :إِنّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسّيّئَاتِ. ثُمّ بَيّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله عَزّ وَجَلّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمّ بِسَيّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله سَيّئَةً وَاحِدَةً"[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلها كُتِبَت له حَسَنةً، ومَن هَمَّ بحَسَنةٍ فعَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا إلى سَبع مِئةِ ضِعفٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها لَم تُكتَبْ، وإن عَمِلَها كُتِبَت. [2].

إشراقة بلاغية (التقابل والالتفات): المقابلة البديعية: بين مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ.

التفاضل في الجزاء: في جانب الحسنة قال: فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا (بأفعل التفضيل ليدل على المضاعفة والكرم الإلهي). أما في جانب السيئة، فلم يقل "فله شر منها" أو "فله مثلها" على نفس السبك، بل غير الأسلوب إلى جملة ظاهرها الطول لكن باطنها الرحمة: (فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

يلاحظ ابن عاشور – رحمه الله - التفاتاً ومظهراً من مظاهر الإطناب في موضع الإيجاز؛ إذ وضع الاسم الظاهر الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ مكان الضمير (فلا يجزون)، وذلك لتسجيل صفة السوء عليهم، والتأكيد على عدل الله المطلق بأن العقاب لا يتجاوز قدر الذنب الذي اقترفوه.

يذكر محمد قطب – رحمه الله - هنا أن المنهج الإسلامي يربي النفس بالرغبة والرهبة، ويعلمها أن ثمن الحسنة مضاعف، بينما كلفة السيئة بمقدارها دون زيادة.

*(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

---

1 - أخرجه البخاري (6491) ومسلم (131) باختلاف يسير.
2 - أخرجه مسلم (130).

تعد هذه الآية من روائع "بشارات الهجرة". نزلت بالجُحفة (بين مكة والمدينة) والنبي ﷺ يغادر وطنه باكياً مستوحشاً، فرض عليك القرآن: أي أنزله وأوجب عليك العمل به وأمرك بتبليغه، لرادّك إلى معاد: أي إلى مكة ظاهراً بالفتح والتمكين، قال البغوي: وهي رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بينما يذهب ابن سعدي رحمه الله: لا بد أن يردك إلى معاد يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم [1]..

إشراقة بلاغية: المركّب المؤكد: استُهلت الآية بـ إنَّ واسم الموصول، واقترنت باللام المزحلقة في لَرَادُّكَ تحقيقاً لِوعد الله وتثبيتاً لقلب النبي ﷺ الجريح.

التنكير والتعظيم في مَعَادٍ: جاءت الكلمة منكرة للتفخيم والتهويل والتعظيم، أي إلى معادٍ أيّ معاد! حيث النصر، والفتح العظيم، ورغم أن لفظ "معاد" يحتمل الآخرة (كما يرى ابن تيمية، وابن سعدي وغيرهم)، إلاّ أن سياق السورة التي بدأت بردّ موسى الرضيع إلى أمه (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ) يقتضي بلاغياً وعضوياً ردّ محمد ﷺ إلى موطنه مكة. وهو ما التفت إليه البقاعي – رحمه الله - بعبقرية في نظم الدرر.

(قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) صيغة تفضيل (أَعْلَمُ) قُصد بها تفويض الأمر لله وحسم المماراة مع كفار مكة. (في ظلال القرآن)، قال سيد قطب – رحمه الله -: "هو الحسم اللطيف الصارم؛ لستُ أنا من يحكم بيني وبينكم، بل الله الذي أنزل هذا الفرض، هو أعلم بالمهتدي والضال".

*(وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ)

تذكير بالنعمة الأولى؛ النبوة. فلم تكن النبوة أمراً يخطط له محمد ﷺ أو يرجوه، بل كانت محض اصطفاء ورحمة. ويتصل هذا بقصة موسى في أول السورة الذي ذهب ليقتبس جذوة نار، فكلمه الله وناداه بالنبوة بلا ميعاد.

إشراقة بلاغية: الاستثناء المنقطع أو التعليلي: (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) مفعول لأجله، أي: ما أُلقي إليك الكتاب لسبب من الأسباب إلا لرحمة الله بك وبالعالمين.

بناء الفعل لما لم يسم فاعله (يُلْقَىٰ): إشارة إلى عظمة المُلقِي (الله سبحانه وتعالى) بواسطة الملك، والالقاء فيه دلالة على النزول العلوي القوي السريع.

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (أي عوناً ومساعداً لهم)، وهذا يذكرنا بقول موسى عليه السلام (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) [القصص:17].

---

1 - انظر: البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص 908)، وابن سعدي: تيسير الكريم المنان (ص606)

يثور سؤال تدبري هنا طرحه أساطين التفسير: كيف يُنهى النبي ﷺ عن مظاهرة الكافرين وهو المعصوم الذي لا يفعل ذلك أصلاً؟ يجيب ابن تيمية وابن عاشور – رحمهما الله -: الخطاب في ظاهره للنبي ﷺ وفي باطنه تعريض بأمته والمؤمنين معه، وهو من باب "إياكِ أعني واسمعي يا جارة". وفيه تهييج للنبي ﷺ وتثبيت له، وقطع لأطماع الكفار في مداهنته.

*(وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

استمرار للتكليفات الإلهية الصارمة الصادرة لصاحب الرسالة ﷺ لمواجهة الحرب النفسية والدعائية التي يشنها مشركو مكة لصدّه وصرف الناس عنه.

إشراقة بلاغية: التأكيد بنون التوكيد الثقيلة: في (يَصُدُّنَّكَ) و(تَكُونَنَّ) شحنة شعورية تسكب القوة في قلب الداعية لئلا يلين أو يتراجع قيد أنملة أمام الضغوط.

صيغة القصر في (إِلَىٰ رَبِّكَ): تقديم الجار والمجرور يقتضي الحصر، أي: اجعل دعوتك خالصة لوجه ربك لا تبتغي بها جاهاً ولا تقرباً من أحد.

يقول محمد قطب – رحمه الله - في كتاباته حول المنهج التربوي: إن الانتقال من النهي عن المظاهرة العارضة للكفار، إلى النهي عن أن يكون من المشركين (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، هو تدرج يحمل طابع "التحذير البالغ" لتطهير مسلك التوحيد من أي شائبة تشبه مسالك أهل الشرك، حتى ولو كانت مجرد مداراة لخططهم.

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

خاتمة الخواتيم، والذروة العظمى للسورة. عودة إلى لبّ العقيدة بعد جولة ممتدة بين مصارع الطغاة والملوك وسنن الاستخلاف في الأرض.

الإشراقة البيانية والبلاغية (أعلى مراتب الإيجاز والإعجاز): الجملة الاعتراضية الاستئنافية: (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) كلمة التوحيد التي تنفي الألوهية والربوبية عما سواه، وتصرفها لله وحده إثباتاً واستغراقاً.

الحقيقة الوجودية المطلقة: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ). استعمل لفظ شَيْءٍ وهو أعمّ النكرات ليشمل الموجودات كلها؛ الملوك، الحضارات، السموات، الأرضين، الأموال. وكلمة هَالِكٌ اسم فاعل يدل على أن الهلاك وصف ذاتي ملازم للمخلوقات، بينما البقاء وصف ذاتي لله تعالى.

وفي سورة الرحمن: (كلّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن:26-27].

أطال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - في تفصيل هذه الآية مراراً، مبيناً أن "وجهه" يعود إلى الله ذاته، وأن كل عمل لا يُبتغى به وجه الله فهو هالك باطل وسراب، فالهلاك هنا يشمل الأعيان والأعمال التي لغير الله.

وعقّب ابن القيم – رحمه الله - بأن المشهد المشهود في الآية يربّي في النفس الزهد المطلق؛ فإذا كان كل شيء هالكاً ومآله الفناء إلا الله، فعلامَ يتقاتل الناس؟ وعلامَ يعلو فرعون؟ ولمَ يطغى قارون؟

القصر البلاغي في الخاتمة: (لَهُ الْحُكْمُ)، تقديم ما حقه التأخير يفيد القصر والتمجيد، فلا حكم لغيره تشريعاً وتكويناً، (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، قصر مرجع العباد ومآلهم إليه وحده لا إلى ملوك الأرض.

الخاتمة: هكذا تأتي خواتيم سورة القصص بنبرة حاسمة تقتلع جذور الطغيان البشري والمادي من قلب المؤمن. تبدأ الآيات بـ (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ) وتنتهي بـ (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ليُغلق القوس على حقيقة واحدة: الأرض زائلة، والعلو فيها هباء، والحكم المطلق والبقاء الأزلي لله وحده، والمستقبل الأخلاقي والدنيوي ميثاق معقود حصراً للمتقين.

المراجع